الشعلة الزرقاء

رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة

جبران خليل جبران

الكتاب : الشعلة الزرقاء .. رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة
الكاتب : جبران خليل جبران
الطبعة : 2016

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

جبران ، جبران خليل
الشعلة الزرقاء .. رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة – جبران خليل جبران – الجيزة – وكالة الصحافة العربية، 2015
ص ، سم .
تدمك : 3– 165 – 446 – 977 – 978
1– الرسائل
أ. العنوان 330.9 **رقم الإيداع / 5218**

الشعلة الزرقاء

رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة

جبران خليل جبران

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

يعتبر جبران خليل جبران من الأدباء الذين أثروا فن المراسلة عند العرب، بما تركه من رسائل لفتت نظر الباحثين، وأثارت فضولهم، فولجوا عبرها إلى عالم جبران المليء بالرموز والأسرار.

لقد فتح جبران فتحا جديدا ورائعا في دنيا الأدب العربي عندما تحول عن التأليف بالعربية إلى التأليف بالإنجليزية.. حتى لمع اسمه في كثير من الدول الأجنبية.

لقد دامت تلك العاطفة بينهما زهاء عشرين عاما دون أن يلتقيا إلا في عالم الفكر والروح والخيال الضبابي إذ كان جبران في مغارب الأرض مقيما، وكانت مي في مشارقها، كان في أمريكا، وكانت في القاهرة. لم يكن حب جبران وليد نظرة فابتسامة فسلام فكلام، بل كان حبا نشأ ونما عبر مراسلة أدبية طريفة ومساجلات فكرية وروحية ألفت بين قلبين وحيدين وروحين مغتربين، ومع ذلك كانا أقرب قريبين وأشغف حبيبين.

كان طبيعيا جدا أن يتعارف بطلا هذا الحب عن طريق الفكر والنشر في أوائل هذا القرن بعد أن أصاب كل منهما شهرة كبيرة.. كانت مي معجبة بمقالات جبران وأفكاره فبدأت بمراسلته عقب إطلاعها على قصته (الأجنحة المتكسرة) التي نشرها في المهجر

عام 1912م، كتبت له تعرب عن إعجابها بفكره وأسلوبه وتناقش آراءه في الزواج وقيوده والحب وأطواره حسب رؤيته في هذه القصة التي قرأتها له، وتعرض عليه رأيها في وجهة نظره في حرية المرأة التي طالب بها والتى اتفقت معه في أمر وعارضته في جانب آخر، حيث قالت: "لا يصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها أن تبحث عن صديق غير زوجها، فلابد أن تتقيد المرأة بواجبات الشراكة الزوجية تقيدا تاما حتى لو هي سلاسل ثقيلة، فلو توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعة، لأن أحكام الطبيعية فوق كل شيء وهذه تعتبر خيانة ولو في مظهرها طاهر وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيه".

ومن هنا كانت البداية، ومن ثم التواصل بالرسائل التي كان كل منهما يبحث فيه عن روح الآخر في يقظته وأحلامه كان كل منهما يسعى لرؤية ذاته في روح صاحبة حتى لكأن تلك الروح هي المرآة التي ينعكس على صفحتها نور الآخر.. وكلما قرأنا هذه الرسائل النابضة بالحياة الناضجة بالصدق ازددنا يقينا بأن الحب الذي شد جبران إلى مي وشغف مي بجبران حب عظيم، بل عشق يكاد يكون صوفيا، لأنه تخطى حدود الزمان والمكان والحواس إلى عالم تتحد فيه قوة الوجود.

ويتضح لنا لدى التأمل في بعض الرسائل برغم ضياع بعضها أن الصلة بين جبران ومي توثقت شيئا فشيئا، لأن لهجته في مخاطبتها تدرجت من التحفظ إلى التودد، ومن الإعجاب إلى صداقة حميمة، ومن ثم إلى حب عام 1919 م، ما إن بلغ ذروته حتى عكرت صفوة سلسلة من الخلافات بينهما التي عبر عنها جبران مرة، هي معاكسات التي تحول عسل القلب إلى مرارة: وقال: "إن الغريب حقا في هذه الصلة تأرجحها بين الحب الجامح، والفتور بين التفاهم التام الذي يضفي عليهما شفافية روحية تغمرها

بالسعادة، وبين سوء التفاهم الذي كان يؤلمهما، ويؤدي إلى القطيعة أحيانا، لكن شدة ولع كل منهما الآخر كانت تدفعهما للتصالح مجددا".

وبرغم كل هذا الحب كان كل منهما يخشى التصريح بعواطفه فيلجأ جبران للتلميح ويرمز إليها ويضع عبارات وصورا مبتكر وجميلة. فلم ينادِ مي قط بقوله "حبيبتي"، ولم يخاطبها باللغة المألوفة للعشاق، غير أنه عبر عن حبه بما هو أبلغ عندما قال: "أنت تحيين في وأنا أحيا فيك"، ووصف علاقته بها "بأنها أصلب وأبقى بما لا يقاس من الروابط الدموية والأخلاقية"، وبعد أن باح لها رجاها أن تطعم النار رسالته إذا لم تجد لبوحه الصدى المرجو في نفسها.

كانت مي في حياة جبران الصديقة، والحبيبة الملهمة وصلة الوصل بينه وبين وطنه، وأكثر ما أحبه فيها عقلها النير الذي تجلى في مقالاتها، وأحب فيها حبها له، وإعجابها بشخصيته وإنتاجه الأدبي والفني الذي كانت تتناول بالتفريظ والنقد في مقالاتها في مصر.

وعلى الرغم من كل ما كتب عن علاقات جبران الغرامية من النساء أمثال "ماري هاسكل" و"ميشلين"، فإن حبه لمي كان الحب الوحيد الذي ملك قلبه وخياله ورافقه حتى نهاية حياته فقد كان حبه لها معادلا حبه العارم لوطنه لبنان.. ولروحانية الشرق وبالدم العربي الذي يجري في عروقه، وهذا مما تؤكده رسائل الشعلة الزرقاء التي هي جوهر النفس الإنسانية في أسمى صفائها، ويميل المحللون للاعتقاد بأنه لم يكن يفكر في الزواج لاعتلال في صحته منذ شبابه، ولاريب أن مي أحبت جبران حبا جعل المقارنة بينه وبين الذين خطبوا ودها أمرا مستحيلا، برغم تردد مي في الأعراب عن مشاعرها وخشيتها في الانطلاق على سجيتها في مراسلته، وذلك بسبب أن جبران كان يعيش في

عالم متطور تحررت نساؤه من التقاليد وحيث إن مي كانت مغلولة القلب والقلم بتأثير البيئة التي عاشت فيها، وبرغم أنها جعلت من بيتها صالونا أدبيا يلتقي فيه كل ثلاثاء رجال الأدب والفكر أمثال أحمد لطفي السيد وخليل مطران وطه حسين وعباس محمود العقاد، وغيرهم من الأدباء والمفكرين.

لقد تمنى جبران أن تتحرر مي من عقدها النفسية وشكوكها! مي عانت صراعا نفسيا حادا في حبها لجبران سبب لها الشقاء ولجبران العذاب والإرهاق. وحين تجاوزت الخامسة والثلاثين من العمر لملمت كل شجاعتها وكتبت أجمل رسالة حب.

"جبران" لقد كتبت كل هذه الصفحات لأحايد كلمة الحب. إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ينمي الحب في أعماقهم قوة "ديناميطية" رهيبة قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم، لأنه لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة يفضلون أي غربة وأي شقاء (وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب؟) على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة.

وكانت هذه الرسالة تصور مي العاشقة أبلغ تصوير.. مما أفرح جبران بتجاوبه معها.

مولدها ونشأتها

ولدت "مي" بالناصرة (فلسطين) سنة 1895م، واسمها الحقيقي ماري بنت إلياس زيادة، صاحب جريدة المحروسة، واختارت لنفسها اسم (مي) الذي اشتهرت به في عالم الأدب، وهي من أشهر أدبيات الشرق وكاتبة موهوبة وخطيبة فسيحة الباع.

تلقت دروسها الابتدائية في مدرسة عين طورة وجاء به والدها وهي دون البلوغ إلى مصر، حيث عكفت على المطالعة والتحصيل والتضلع من مختلف العلوم والفنون وعرفت من اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية، وأتقنتها، فاستكملت ثقافتها وتميزت بالذهن البارع والذوق السليم.

كانت تنشر فيض قريحتها في مجلات الزهور والمقتطف والهلال وجرائد المحروسة والسياسة والرسالة، ولما سطع نجمها في سماء الأدب العربي كان يجتمع بعد ظهر الثلاثاء من كل أسبوع في دارها نخبة من العلماء والشعراء وقادة الفكر من أهل مصر، وهم يخوضون في الحديث ويتبارون في مختلف البحوث العلمية والفنية، وكانت (مي) مالكة عنانها لتوجه المناقشات والأحاديث بلفظها الرشيق والناصع، وأصبحت دارها منتدى أدبيا حافلا، وكان أكثره ترددا عليها الشعراء إسماعيل صبري ومصطفى صادق الرافعي

وولي الدين يكن، وأحمد شوقى، وخليل مطران، وشبلي شميل – رحمهم الله – وغيرهم، وظلت دارها كدار بنت المستكفي منتدى للنوابغ، وكانت بمواهبها وفتنتها مبعث الوحي والإلهام لقرائحهم، لأنها جعلت قلوب هؤلاء النوابغ تنفعل بموحياتها الأنثوية الناعمة وسحر الجمال، وقد نظم المرحوم إسماعيل صبري باشا أبياتا نفيسة.

كان أول كتاب وضعته باسم مستعار (إيزيس كوبيا) وهو مجموعة من الأشعار باللغة الفرنسية، ثم وضعت مؤلفاتها (باحثة البادية) وكلمات وإرشادات، ظلمات وأشعة، سوانح فتاة، بين المد والجزر، الصحائف والرسائل، وردة اليازجى، عائشة تيمور، الحب في العذاب، رجوع الموجة، ابتسامات ودموع، وقامت بعدة رحلات إلى أوروبا وغذت المكتب العربية بطائفة من الكتب الممتعة موضوعة ومنقولة وبلغت من غايتها في الأدب والعلم والفن فاستفاض ذكرها على الألسنة.

وكانت تميل إلى فني التصوير والموسيقى، وكانت إذا وضعت قصة تجعل ذكرى قديمة تثيرها رؤية لون أو منظر من المناظر، أو حادثة من الحوادث، وقد يكون إيحاء بما تشعر به وتراه في حياتها، فتدفعها هذه الذكرى ويستنفرها هذا الإيحاء إلى كتابة القصة، وقد تستيقظ في الفجر لتؤلف القصة، ومن عادتها أن تضع تصميما أوليا للموضوع، ثم تعود فتصوغ القصة وتتم بناءها، وأن الوقت الذي تستغرقه في كتابة القصة قد يكون ساعة أو أسابيع أو شهورا حسب الظروف.

لم تكن مي امرأة عادية، فقد امتزجت في ملامح شخصيتها الريادة الأدبية بالريادة الاجتماعية في بداية القرن العشيرين، لهذا كانت أولى خطواتها في هذا المجال هي الإقبال على التعليم والتفرغ للكتابة، وقد دفعها حبها للغة العربية أن تفتح بيتها، بتشجيع من والديها، لرجال الأدب، فكانت تحاورهم وتستمع إلى إبداعاتهم في صالونها

الذي كانت تعقده كل يوم ثلاثاء، مما أثر إيجابيا على عملها الصحفي والأدبي، فقد عملت مع أبيها في صحيفته "المحروسة" التي افتتحها في القاهرة، كل ذلك في زمن لم تكن المرأة العربية تجرؤ على الخروج من المنزل وحدها.

لم تحاول مي الخروج من الأغلال الخارجية التي تقيد المرأة فقط، بل وجدناها تحاول الخروج من أغلال الذات، فكانت رائدة في محاولة التعبير عن أعماقها عبير الأدب "الرسائل، المقالة، الخاطرة الوجدانية التي وجدنا ها في كتبها"، أي عبر أجناس أدبية تظهر صوت "الأنا" صريحا واضحا، إذ من المعروف أن الكاتبة العربية لم تجرؤ على الخوض في هذا المجال إلا بعد "مى" بأكثر من خمسين سنة، وهي، غالبا، حين تريد أن تعبر عن ذاتها تتخذ قناع الشخصية الروائية، وهذا ما فعلتها الأديبة غادة السمان في روايتها "الرواية المستحيلة فسيفساء دمشقية" "1997". والتي إلى الآن لم تصدر الجزء الثاني المتعلق بمرحلة الشباب، وتوتقفت عند مرحلة الطفولة والمراهقة!!"

هنا يجدر بنا أن نوضح أن "مى" لم تكن في بداية علاقتها بجبران امرأة منطلقة في التعبير عن ذاتها، فقد اكتفت في البداية بالعلاقة الفكرية، بل دعت جبران للالتزام بحدودها، فاتسمت لغتها بالحذر، وتحصنت باللهجة الرسمية في الخطاب، فأخفت مشاعره بألف قناع، حتى وجدن جبران يتساءل مستغربا شدة تردده وحذرها: "أهو الخجل أم الكبرياء أم الاصطلاحات الاجتماعية". لعله كان يقارنا بالمرأة التي التقى بها في الغرب، والتي تتمتع بحرية التعبير عن أعماقها! دون أن يغفل عن خصوصية المرأة الشرقية وضغط القيود الاجتماعية عليها، مما تضطرها إلى الاحتماء بالخجل تارة وبالكبرياء تارة أخرى!

من المؤكد أن "مى" في البداية سعت إلى توظيف المراسلة بينها وبين أديب مشهور، كي تجعلها عاملا في تطويرها الفكري والأدبى، ولم تتوقع أن تقع أسيرة كلماته، لكنها حين أحست أنها بدأت تحرك عواطفها وتمتع ذائقتها الفنية معا، بدأت بالتهرب منها!

هنا لا نستطيع أن نفصل بين مي الإنساني والأدبية، فقد عشقت مي الأدبية كلماته ربما قبل المراسلة، وازدادت عشقا لها بعدها، فانقلب العشق الفني إلى عاطفة متأججة يأباها عقلها، لهذا ملأ التردد ذاتها، وشاعت لديها الصرامة في محاسبة الذات ومحاسبة الطرف الآخر "المرسل" على كل كلمة، لهذا وصفها جبران في إحدى الرسائل بـ"الموسوسة" التي لا تعرف سوى التردد، من هنا لن نستغرب تكرار هذه الأفكار والمواقف التي نستسفها من رسائل جبران، فهي محبة يعجبها الاستمرار مع جبران في مثل هذه المغامرة، لكن سرعان مايؤرقها صوت العقل الذي يذكرها بالواقع الاجتماعي الذي يعلن قيمة الأسرة والزواج في حياة المرأة، ولم يعتد مثل هذه علاقات الصداقة والحب بين المرأة والرجل دون رابط شرعى! كما يذكرها صوت العقل بوق الزمن الذي لا يرحم المراة، فكانت تنقطع عن مراسلته أشهر طويلة، ثم تعود، ومع عودتها كانت تضطر لمعاودة الحوار مع ذاتها، فتكرر محاسبتها لها، لهذا كانت تكرر أسئلة جبران مستفهما عن أسباب الانقطاع، فكانت تدافع عن وجهة نظرها بترداد حججها نفسها، التي تزداد مع الأيام وجاهة وإقناعا! إذ تنطلق باسم العقل الذي لا ينفصل عن المشاعر كما يعتقد الكثيرون!! كما نجدها تنطق باسم المجتمع، حيث كانت أمها أحد الأصوات القوية التي تردد على مسامعها أن الزمن لا يرحم وأن الاستقرار ضروري للمرأة!

لهذا كله انتظرت حوالى اثنتي عشرة سنة لتصرح بعواطفها كتاب لجبران، ولتبين له أنه هو الذي منحها الجرأة، وأنه لو كان يشاركها العيش في بلده لم جرؤت على ذلك! لكن يبدو أن التصريح لم يجلب لها الراحة المتوخاة، أو الأمل بعرض للزواج يأتيها من جبران! لذلك تعود إلى ترددها وتهربها خاصة بعد أن غزا الشيب مفرقها!.. لكن عاطفتها القوية تلح عليها بالكتابة، يضاف إلى تلك العاطفة حس إنساني مرهف بآلام الآخر، لهذا كان قلقها على صحة جبران من أسباب عودتها للكتابة إليه أحيانا!

لعل هذا التردد في قبول مثل هذه العلاقة الاستثنائية أحال حياتها إلى مأساة، فعاشت القلق والمعاناة في علاقة كان عزاؤها فيها هو الخيال والرحلة عبر الكلمة إلى عوالم مدهشة، تنأى بها عن الواقع واحتياجاته الطبيعية.

لم تستطع "مي" الركون إلى هذه العلاقة سوى لحظات تحلق بها بعيدا، ثم ترتطم بالأرض، فالمرأة المثقفة والأديبة كانت تبحث عن علاقة طبيعية، تعيش فيها عواطفها وأمومتها! وفي الوقت نفسه تحلق روحها فيها بعيدا عن المألوف في علاقة أقرب إلى الاستثناء!

أعتقد أن روعة شخصية "مى" تجلت في كونها أنهت صراعها الداخلي حين تأكدت في النهاية من مرض جبران، فبدت لنا امرأة عاشقة وأما حانية، تسعى للوقوف إلى جانب جبران في محنته!.. فتحيطه بعواطف الحب والأمومة معا!!

إن المتأمل في قصة الحب هذه، لابد أن تدهشه قدرة المرأة على الحب والعطاء، فقد منحت رجلا لم تر أبدا كل حياتها، حتى أصبح هذا الحب مأساستها وعزاءها معاً! فقد أحبت جبران عبر كلماته، وأخلصت له، حتى أنها عاشت تستمد القوة منها سواء في حياة جبران أم بعد وفاته!

للوهلة الأولى تبدو لنا "مي" امرأة تعيش حياة منطلقة بالقياس إلى نساء عصرها الشرقيات، إذ استطاعت أن تجمع في صالونها أبرز أدباء عصرها "طه حسين، العقاد، الرافعي.."، وذلك بفضل سماتها الشخصية "الثقافة واللباقة والروح المرحة والإخلاص والصدق"، مما يدفعني إلى الاعتقاد بأنها أسهمت في تطوير الحركة الثقافية في تلك الفترة، خاصة أنها خلقة جوا تنافسيا بين الأدباء، فكل واحد منهم كان معنيا بكسب ودها، بل عاطفتها! لكنها رغم ذلك ظلت امرأة شرقية متحفظة في علاقتها مع الرجل، إلى درجة أن العقاد قال لها يوما: أنت تعيشين كراهبة في صومعة! فهي من الناحية الشعورية ظلت أمينة لعادات الشرق وتقاليده، لهذا استطاعت أن تنال احترام مجتمعها رغم اختلاطها بالرجال هذا من جهة، ومن جهة أخري كان ذلك خير دليل على إخلاصها لجبران!!

لقد تجاوزت مي المألوف حين وجدت في كلمات الحب ملاذا عاطفيا لها، فسجنت حياتها فيها، فاختارت حبا أشبه بالخيال على حياة عادية، فحرمت نفسها من دفء العائلة وضحت بسببه بالأمومة التي هي حلم كل امرأة!

ولعل خير دليل على أهمية تلك الكلمات في حياة "مي" أنها عاشت متألقة في حياته الاجتماعية والأدبية على وقع رسائل جبران ولم تتدهور حياتها النفسية إلا بعد وفاة جبران "1931" إذ عدت نفسها أرملته، فارتدت السواد عليه، ومما فاقم بؤسها وفاة أمها في إثره "1932" لعلها في تلك الفترة بدأت تشعر بعدم الرضا عن نفسها، واكتشفت أن قرارها بعد الزواج لم يكن صائبا! وبدأت تحاسب نفسها بقسوة، فقد أحست بمدى الظلم الذي ألحقته بحايتها حين تعلقت بكلمات جبران، ووهبت شبابها لحب سماوي لا علاقة له بالواقع وبطبيع البشر!

لا يمكننا أن نحمل الكلمة المجنحة المسؤولية عن تدهور حالتها النفسية وإغراقها في الكآبة، لأننا نلغي إرادتها في استمرار تلك العلاقة، التي جلبت لها الفرح والألم معا!.. لكننا نستطيع أن نحمل أقاربها في مصر ثم في لبنان تلك المسئولية، إذ بدأوا بإزعاجها منذ وفاة أبيها "1930" فطالبوها بالإرث، بل وصل بهم الطمع حد مطالبتهم بنصف ثروتها التي كونتها مع أبيها! وحين رفضت زاد إزعاجهم لها، حتى وصل شرهم حد تدبير مكيدة إدخالها مستشفى المجانين في لبنان! ولولا مساعد أهل المروة من الأدباء "أمين الريحانى" والشرفاء من أمثال أولاد الأمير عبد القادر الجزائري وغيرهم من الصحفيين والمحاميين لما خرجت من محنتها!!

المدهش أن "مي" حملت رسائل جبران معها، في كل مكان رحلت إليه، ورافقتها في مأساتها في مشفى "ريفز" في بيروت أطلعت عليها جارتها في الغرفة المجاورة، فقد شكلت لها عزاء في مأساتها الرهيبة!

إننا أمام امرأة غير عادية أخلصت لحب رجل، يعيش بعيد عنها، ويعترف لها، في إحدى رسائله، أن حياته موزعة بين المرأتين، "امرأة الحلم وامرأة الواقع"، فكان نصيب "مي" دور المهمة التي تحمل روح الشرق الذي يحلم بالعودة إليه دون أن يستطيع، فيرسل لها تلك الكلمات المجنحة التي تعبر عن عواطفه لها، فتشدها إليه كلما حاولت فك أسرها! في حين كانت امرأة الواقع "ماري هاسكل" تقف إلى جانبه فتسانده ماديا ليكمل رحلته في عالم الفن، كما ساندته معرفيا، حين كانت تصحح له نسخ كتبه التي كان يكتبها بالإنجليزية! وتعترف ماري هاسكل بأنه عرض عليها الزواج لكنها رفضت، ربما بسبب الفارق الكبر في السن، وربما بسبب علاقاته النسائية المتعددة! المهم أن صداقتها بجبران استمرت رغم زواجها، كما استمرت "مي" في حبها له رغم عدم زواجه

بها! فقد أسرتها كلماته المدهشة التي تستلب الروح، والإرادة بعنفوانها وصدقها "أنت تحيين بى، أنا أحيا بك"، كما أسرتها صراحته، فقد وجدناه يكشف لها عيوب نفسه فهو يعيش في سجن طموحاته، يلاحق إحساس أنه لم يقل شيئا خالدا بعد، وأنه مؤرق بهاجس الإبداع الذي يحتاج تفرغا كليا، لعله يستطيع أن يقول كلمته، وهكذا يوضح لها أنه يعيش أسير مشروعاته الفنية والأدبية، وأن المراة في حياته ملهمة ورفيقة إبداع بعيدة عن الأطر المألوفة!

لقد عاش جبران في الغرب كما يروي صديقه ميخائيل نعيمة حياة منطلقة دون أية قيود، فعرف العديد من النساء، وطمح إلى أن يعيش حياة خيالية مع امرأة شرقية، تغذي إبداعه بنبض خاص، كانت هذه الازدواجية تريحه وربما مصدر إلهام له، في حين كانت العلاقة بالنسبة إلى "مى" حياتها بأكملها رغم أنها خيال أقرب إلى حلم! فبدت كلماته تسري في عروقه لتمنحها دماء الحياة وألقها، لقد كانت "مي" ضحية علاقة رسمها الرجل كما يريد له طموحه الإبداعي بمعزل عما تريده المرأة أو تحلم به.

إذن لو كانت مي امرأة عادية لرفضت تلك العلاقة التي كانت عبثا عليها!! هنا نتساءل: هل طغت على "مى" رهافة حس الإديبة، فعاشت مخلصة للكلمة في حياتها الشخصية وفي حياتها العامة! هل رأت في الخيال جمالا يفوق الواقع؟ حل كانت كلمات جبران حلما لاذت به يعوضها عن بؤس الواقع؟.. هل حياته في مصر، أي في بيئة غريبة عن بيتها في الشام سبب في تعلقها بجبران، لذا رأت فيه وطنا تنتمي إليه!؟ هل أحسبت بأن هذه البيئة العربية قد عجزت عن إنجاب كفء لها؟.. فكان الخيال أرحم بها من الواقع.

ربما افتقدت في محيطها الرجل الند لهذا عاشت قصة حب ترضي ذاتها، ولو كان ذلك عبر الوهم والخيال، مادام الواقع لم يطرح أمامها من يراه قلبها مناسبا فعاشت الصدق والإخلاص لعلاقة أشبه بالحلم، بل دعاها فيها جبران بامرأة الحلم.

لقد أدهشتني تضحية المرأة بشبابها من أجل حب سماوي، كما آلمني ضياع صوتها الخاص بضياع معظم رسائلها، رغم أنها ضحت بحياتها من أجل هذا الحب! لهذا تجرأت في كتابي "الحب السماوي بين مي زيادة وجبران خليل جبران" على تجسيده عبر الخيال مستعينة برسائل جبران، كي أستطيع استشفاف ردود فعل مى، وأبين أن الكلمة لم تكن محور حياتها الأدبية فقط، وإنما محور حياتها الشخصية!.. لهذا يمكنني القول بأن أبطال هذا الحب السماوي ثلاثة: "مي وجبران والكلمة المجنحة".

حضرة الأديبة الفاضلة

نيويورك – يناير(بدون ذكر السنة)

قد فكرت في أمور كثيرة في تلك الشهور الخرساء التي مرت بدون خطب ولا جواب، ولكنه لم يخطر على بالى كونك "شريرة" أما الآن وقد صرحت لي بوجود الشر في روحك، فلا يجمل بي سوى تصديقك فأنا أصدق وأثق بكل كلمة تقولينها لي! أنت بالطبع تفتخرين بقولك "أنا شريرة"، ويحق لك الافتخار، لأن الشر قوة تضارع الخير بعزمها وتأثيرها. ولكن اسمحي لي أن أقول لك مصرحا بأنك مهما تماديت بالشر فلا تبلغين نصف ما بلغته، فأنا شرير كالأشباح الساكنة في كهوف الجحيم، بل أنا شرير كالروح السوداء التي تحرس أبواب الجحيم! وأنت بالطبع ستصدقين كلامي هذا!

غير أنني للآن لم أفهم الأسباب الحقيقية التي دعتك إلى استخدام الشر ضدي، فهلا تكرمت بإفهامى؟ قد أجبت على كل رسالة تكرمت بها على واسترسلت متعمقا بمعاني كل لفظة تعطفت بهمسها في أذني، فهل هناك أمر آخر كان يجب على أن أفعله؟ أولم تبدعي لي من "لاشيء" ذنبا لتبيني لي مقدرتك على الاقتصاص؟ لقد فلحت

وأحسنت البيان أما أنا فقد آمنت بـ"اقنومك" الجديد الكلي المطلق الجامع بين أسياف "كالى" ربة الهند وسهام "ديان" معبودة الأغريق.

والآن وقد فهم كل منا ما في روح الآخر من الشر والميل إلى الاقتصاص فلنعد إلى متابعة الحديث الذي ابتدأنا به منذ عامين. كيف أنت وكيف حالك؟ هل أنت بصحة وعافية (كما يقول سكان لبنان)؟ هل خلعت ذراعا ثانية في الصيف الماضي أم منعتك والدتك من ركوب الخيل فعدت إلى مصر صحيحة الذراعين؟ أما أنا فصحتى أشبه شيء بحديث السكران وقد صرفت الصيف والخريف متنقلا بين أعالي الجبال وشواطىء البحر ثم عدت إلى نيويورك أصفر الوجه نحيل الجسم لمتابعة الأعمال ومصارعة الأحلام، تلك الأحلام الغريبة التي تصعد بي إلى قمة الجبل ثم تهبط بي إلى أعماق الوادى.

وقد سررت باستحسانك مجلة الفنون فهي أفضل ما ظهر من نوعها في العالم العربى، أما صاحبها فهو فتى عذب النفس دقيق الفكر وله كتابات لطيفة وقصائد مبتكرة ينشرها تحت اسم "ليف"، ومما يستدعي الإعجاب بهذا الشاب هو أنه لم يترك شيئا مما كتبه الإفرنج إلا وعرفه حق المعرفة، أما صديقنا أمين الريحاني فقد ابتدأ بنشر رواية جديدة طويلة في مجلة فنون، وقد قرأ لي أكثر فصولها فوجدتها جميلة للغاية ولقد أخبرت صاحب الفنون بأنك سوف تبعثين إلى بمقالة ففرح وبات يترقب.

بكل أسف أقول أنني لا أحسن الضرب على آلة من آلات الطرب ولكنني أحب الموسيقى، محبتي الحياة، ولي ولع خاص بدرس قواعدها ومبانيها والتعمق بتاريخ نشأتها وارتقائها فإن أبقتني الأيام سأكتب رسالة طويلة في الدوائر العربية والفارسية وكيفية ظهورها وتدرجها وتناسخها.

ولي ميل للموسيقى الغربية يضارع ميلي للأنغام الشرقية، فلا يمر أسبوع إلا وأذهب مرة أو مرتين إلى الأوبرا، غير أني أفضل من البيان الموسيقي الأفرنجي، تلك المعروف بالسنفوني والسوناتا والكنتاتا على الأوبرا والسبب في ذلك خلو الأوبرا من البساطة الفنية التي تناسب أخلاقي وتتمايل مع أميالى، واسمحي الآن أن أغبط يدك على عودك وعودك على يدك، وأرجوك أن تذكري اسمي مشفوعا باستحساني كلم ضربت نغم النهاوند على الأوتار، فهو نغم أحبه ولي رأي فيه يشابه رأي "كارليل في النبي مُحَمَّد". (كارلايل: أديب ومؤرخ إنجليزي درس بعضا من العربية في جامعة كمبردج سنة 1795 وكتب عن النبي مُحَمَّد فصلا ضمنه إعجابه بشخصيته البطولية في مؤلفه "الأبطال عبادة الأبطال والبطولة في التاريخ".

وهلا تكرمت بذكرى أم هيبة أبي الهول؟ عندما كنت في مصر كت أذهب مرتين في الأسبوع وأصرف الساعات الطوال جالسا على الرمال الذهبية محدقا بالأهرام وكنت في ذلك العهد صبيا في الثامنة عشرة ذا نفس ترتعش أمام المظاهر الفنية ارتعاش الأعشاب أمام العاصفة، أما أبو الهول فكان يبتسم لي ويملأ قلبي بحزن عذب وندبات مستحبة.

أنا معجب مثلك بالدكتور شميل فهو واحد من القليلين الذين انبتهوا لبناء النهضة الحديثة في الشرق الأدنى، وعندي أن الشرقيين يحتاجون إلى أمثلا د. شميل، فهم في حاجة ماسة كرد فعل للتأثير الذي أوجده الصوفيون والمتعبدون في القطرين مصر وسوريا.

هـل قـرأت الكتـاب الفرنسـاوي الـذي وضـعه خـير الله أفنـدي خـيرالله؟ أنا لم أره بعد، وقد أخبرني صديق بأن في الكتاب فصلا جميلا، فإذا كـان لـديك نسـختان تكرمي بإرسال نسخة منهما إلي، وأجرك على الله.

ها قد انتصف الليل فليسعد الله مساءك ويبقيك للمخلص.

جبران خليل جبران

حضرة الأديبة الفاضلة
الآنسة ماري زيادة المحترمة

نيويورك 24 يناير 1919

سلام على روحك الطيبة الجميلة. وبعد فقد استلمت اليوم أعداد "المقتطف" التي تفضلت بإرسالها إلى فقرأت مقالاتك الواحد إثر الأخرى، وأنا بين السرور العميق والإعجاب الشديد.

ولقد وجدت في مقالاتك سربا من تلك الميول والمنازع التي طالما حامت حول فكرتي وتتبعت أحلامي، ولكن هناك مبادئ ونظريات أخرى، وددت لو كان بإمكاننا البحث فيها شفاها. فلو كنت الساعة في القاهرة لاستعطفتك لتسمحي لي بزيارتك فنتحدث مليا في "أرواح الأمكنة" وفي "العقل والقلب"، وفي بعض مظاهر "هنري برجسن" (هنري برجسن فيلسوف فرنسي حاز على جائزة نوبل عام 1927 وهو صاحب نظرية الروحانية ضد هجمات المذاهب المادية. من مؤلفاته: "المادية والذاكرة" و"النطور والأخلاق")، غير أن القاهرة في مشارق الأرض ونيويورك في مغاربها وليس من سبيل إلى الحديث الذي أوده وأتمناه.

إن مقالاتك هذه تبين سحر مواهبك وغزارة إطلاعك وملاحة ذوقك في الانتقاء والانتخاب، وعلاوة على ذلك فهي تبين بصورة جلية اختباراتك النفسية الخاصة.

ولكن لي سؤال أستأذنك بطرحه لديك وهو هذا: ألا يجيء يوم يا ترى تنصر فيه مواهبك السامية من البحث في مآتي الأيام إلى إظهار أسرار نفسك واختباراتها الخاصة ومخبآتها النبيلة؟ أفليس الابتداع أبقى من البحث في المبدعين؟ ألا ترين أن نظم قصيدة أو نثرها أفضل من رسالة في الشعر والشعراء؟ إني كواحد من المعجبين بك أفضل أن أقرأ لك قصيد في ابتسامة أبي الهول مثلا من أن أقرأ لك رسالة في تاريخ الفنون المصرية، وكيفية تدرجها من عهد إلى عهد ومن دولة إلى دولة، لأن بنظمك قصيدة في ابتسامة أبي الهول تهبيني شيئا نفسيا ذاتيا، أما بكتابتك رسالة في تاريخ الفنون المصرية فإن تدليني على شيء عمومي عقلى. وكلامي هذا لا ينفي كونك تستطيعين إظهار اختبارات النفسية الذاتية في كتابة تاريخ الفنون المصرية بيد أني أشعر بالفن، والفن إظهار ما يطوف وتمايل ويتجوهر في داخل الروح وهو أحرى وأخلق بمواهبك النادرة من البحث، والبحث إظهار ما يطوف ويتمايل ويتجوهر في الاجتماع. ليس ما تقدم سوى شكل من الاستعطاف باسم الفن.

فأنا أستعطفك لأني أريد أن أستميلك إلى تلك الحقول السحرية حيث "سافو" (شاعرة إغريقية ولدت في مدينة ليزبوس في أوائل القرن السادس قبل الميلاد لها تسعة دواوين من الشعر الغنائي والأناشيد لم يصلنا منها سوى بضع قصائد)، وايليزبيت براوننج (شاعرة بريطانية مبدعة تمتاز قصائدها بالعمق والرقة والنزعة الصوفية. وهي زوج الشاعر الإنجليزي روبيرت براوننع الذي أحبها من خلال قصائدها قبل أن يتعرف إليها

ثم زارها في بيتها فأحبته حبا عارما جعلها تتغلب على مرض عضال كان قد أقعدها)، وأليس شراينر (كاتبة إنجليزية دعت في مؤلفاتها إلى تحرير النساء) وغيرهن من أخواتك اللواتي بنين سلما من الذهب والعاج بين الأرض والسماء.

أرجوك أن تثقي بإعجابي وأن تتفضلي بقبول احترامي القائق والله يحفظك للمخلص.

جبران خليل جبران

عزيزتي الآنسة مي (1)

نيويورك في 7فبراير 1919

لقد أعادت رسالتك إلى نفسي ذكرى ألف ربيع وألف خريف، وأوقفتني ثانية أمام تلك الأشباح التي كنا نبتدعها ونسيرها موكبا إثر موكب. تلك الأشباح التي ماثار البركان (يقصد بذلك الحرب العالمية الأولى)، في أوروبا حتى انزوت محتجبة بالسكوت وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله.

هل تعلمين ياصديقتي أنني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينية؟ وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت في قدس الأقداس، فعرفت السر العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح ثم اتخذت بلادي بلادا لها وقومي قوما لها؟ وهل تعلمين بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة إذن خيالي، كلما وردت إلي ّ رسالة منك؟ لو علمت لما انقطعت عن الكتابة إلي ّ ، وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة.

أما مقالة أبي الهول فالسماء تعلم بأنني لم أطلبها منك إلا بعد إلحاح مستمر من صاحب مجلة "الفنون" سامحه لله. فإن من طبعي استهجان اقتراح المواضيع على الأدباء خصوصا تلك الفئة القليلة التي لا تدون إلا ما توحيه الحياة إليها، وأنت من تلك الفئة القليلة وفوق ذلك فأنا أعلم أن الفن يطلب ولا يطلب منه، وأن اقتراح المواضيع شيء مانع عن الإجادة فيها، فلو كتبت إلّي في ذلك الزمن قائلة: "لا ميل لي الآن إلى كتابة مقالة في أبي الهول" لقلت مترنما: "لتعش مي طويلا فهي ذات مزاج فني لا غش فيه".. الخلاصة أنني سأسبقك في كتابة مقالة في ابتسامة أبي الهول! وبعد ذلك سأنظم قصيدة في ابتسامة مي ولو كان لدي صورتها مبتسمة لفعلت اليوم، ولكن علّي أن أزور مصر لأرى مي وابتسامتها. وماذا عسى أن يقول الكاتب في ابتسامة المرأة؟ أفلم يقل ليونردو دافنشي آخر كلمة في الموضع عندما انتهى من صورة "لاجوغندا"؟ ولكن أليس في ابتسامة الصبية اللبنانية سر لا يستطيع إدراكه وإعلانه غير اللبناني أم هي المرأة لبنانية كانت أم إيطالية تبتسم لتخفي أسرار الأبدية وراء ذلك النقاب الرقيق الذي تحوكه الشفاه؟

والمجنون (أول مؤلفات جبران باللغة الإنجليزية) وماذا يا ترى أقول لك عن المجنون؟ أنت تقولين أن فيه ما يدل على "القسوة: بل وعلى "الكهوف المظلمة". وأنا الآن أسمع مثل هذا الانتقاد مع أنني قرأت الكثير مما نشرته جرائد ومجلات أمريكا وإنجلترا في هذا الكتباب الصغير. والغريب أن أكثر الأدباء الغربيين قد استحسنوا القطعتين: (The sleep walkers , my minde) " مقالتان لجبران عقلي والسائرون في نومهم".

واستشهدوا بهما أو ذكروهما بصورة خاصة. أما أنت ياصديقتي فقد وجدت فيهما القسوة، وماذا ينفع الإنسان إذا ربح استحسان العالم وخسر استحسان مى؟ وقد

يكون ارتياح هؤلاء الغربيين إلى المجنون وأخيلته ناتجا عن مللهم أخيلة نفوسهم، وعن ميلهم الطبيعي إلى الغريب وغير المألوف خصوصا إذا كان شرقي المظاهر. أما تلك الأمثال والقصائد المنثورة التي نشرت في الفنون فقد ترجمها عن الأصل الإنجليز أديب محبته لي أوسع قليلا من معرفته بدقائق البيان الإنجليزى.

ولقد رسمت بالحبر الأحمر دائرة حول لفظة "اشمئزاء" التي جاءت في كلامك عن المجنون، فعلت ذلك لعلم بأنك إذا وضعت كلمات the sleep walkers بين شفاه الأمس والغد بدلا من وضعها على لسان أم وابنتها لأبدلت لفظة الاشمئزاز بلفظة أخرى أليس كذلك؟

وماذا أقول عن كهوف روحى؟ تلك الكهوف التي تخيفك أني التجئ إليها عندما أتعب من سبل الناس الواسعة وحقوله المزهرة وغاباتهم المتعرشة، أن أدخل كهوف روحي عندما لا أجد مكان آخر أسند إليه رأسي ولوكان لبعض من أحبه الشجاعة لدخول تلك الكهوف لما وجدوا فيها سوى رجل راكع على ركبتيه وهو يصلى.

أما استحسانك الرسوم الثلاثة في المجنون فقد سردني ودلني على وجود عين ثالثة بين عينيك، وقد طالما عرفت أن وراء أذنيك آذانا خفية تسمع تلك الأصوات الدقيقة الشبيهة بالسكوت تلك الأصوات التي لاتحدثها الشفاه والألسنة، بل ما وراء الألسنة والشفاة من الوحدة العذبة والألم المفرح والشوق إلى ذلك العالم البعيد غير المعروف.

وأنت تسألين ما إذا كنت أريد أن يفهمني أحد بعد قولي: for those who understand us enslave something in us "لأن الذين يدركون جبايا نفوسنا يأسرون شيئا منها".

لا لا أريد أن يفهمني بشري إذا كان فهمه إياي ضربا من العبودية المعنوية. وما أكثر الذين يتوهمون أنهم يفهموننا لأنهم وجدوا في بعض مظاهرنا شيئا شبيها بما اختبروه في مرة في حياتهم، وليتهم يكتفون بادعائهم إدراك أسرار تلك الأسرار التي نحن ذواتنا لا ندركها، ولكنه يصمموننا بعلامات وأرقام ثم يضعوننا على رف من رفوف أفكارهم واعتقاداتهم مثلما يفعل الصيدلي بقناني الأدوية والمساحيق! أوليس ذلك الأديب الذي يقول بأنك تقلديني في بعض كتاباتك من هؤلاء البشر الذين يدعون فهمنا ومعرفة خفايا؟ وهل تستطيعين إقناعه بأن الاستقلال هو محجة الأرواح، وأن أشجار السنديان والصفصاف لا تنمو في ظلال بعضها البعض؟

ها قد بلغت هذا الحد من رسالتي ولم أقل كلمة واحدة مما قصدت أن أقوله عندما ابتدأت، ولكن هل يا ترى يقدر أن يحول الضباب اللطيف إلى تماثيل وأنصاب؟ ولكن الصبية اللبنانية التي تسمع ما وراء الأصوات سترى في الضباب الصور والأشباح.

والسلام على روحك الجميلة ووجدانك النبيل وقلبك الكبير والله يحرسك.

المخلص

جبران خليل جبران

عزيزتي الآنسة مي (2)

نيويورك 11يونيه 1919

رجعت اليوم من سفرة مستطيلة إلى البرية فوجدت رسائلك الثلاث والمقال الجميل الذي تفضلت بنشره في جريدة "المحروسة". ولقد علمت من خادمي أن هذه الرسائل، بل هذه الثروة الجليلة قد وصلت معا منذ أربعة أيام. الظاهر أن البريد المصري قد توقف عن إصدار الرسائل من القطر مثلما حجز الرسائل الواردة إليه.

ولقد انصرفت عن كل ما وجدته بانتظاري في هذا المكتب لأصرف نهاري مصغيا إلى حديثك الذي يتمايل بين العذوبة والتعنيف، أقول "التعنيف"، لأنني وجدت في رسالتك الثانية بعض الملاحاظات التي لو سمحت لنفسي الفرحة أن تتألم لتألمت منها.

ولكن كيف أسمح لنفسي بالنظر إلى شبه سحابة في سماء صافية مرصعة بالنجوم؟ وكيف أحول عيني عن شجرة مزهرة إلى ظل من أغصانها؟ وكيف لا أقبل وخزة صغيرة من يد عطرة مفعمة بالجواهر؟ إن حديثنا الذي أنقذناه من سكوت خمسة أعوام

لا ولن يتحول إلى عتاب أو مناظرة فأنا أقبل بكل ما تقولينه لاعتقادي بأنه يجمل بنا وسبعة آلاف ميل تفصلنا ألا نضيف فترا واحدا إلى هذه المسافة الشاسعة، بل أن نحاول تقصيرها بما وضعه الله فينا من الميل إلى الجميل والشوق إلى المنبع والعطش إلى الخالد. يكفينا يا صديقتي ما في هذه الأيام وهذه الليالي من الأوجاع والتشويش والمتاعب والمصاعب. والوقوف أمام المجرد المطلق لا تزعجها كلمة جاءت في كتاب أو ملاحظة أتت في رسالة. إذن فلنضع خلافاتنا – وأكثرها لفظية – في صندوق من ذهب ولنرمي بها إلى بحر من الابتسامات.

ما أجمل رسائلك يا مي وما أشهاها فهي كنهر من الرحيق يتدفق من الأعالي، ويسير مترنما في وادي أحلامي بل هي كقيثارة اورفيوس (شاعر وموسيقى تحدثت عنه أساطير اليونان، سحر بأنغامه وحش الغاب وآلهة الجحيم) تقرب البعيد وتبعد القريب وتحول بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلات متقدة والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة. إن يوما يجيئني منك برسالة واحدة لهو من الأيام بمقام القمة من الجبل، فما عسى أن أقول في يوم يجيئني بثلاث رسائل؟ ذلك يوم أنتحي فيه عن سبل الزمن لأصرفه متجولا في إرم ذات العماد.

وبما أجيب عن سؤالاتك؟ وكيف أستطيع متابعة الحديث وفي النفس ما لا يسيل مع الحبر؟ ولكن لابد من متابعة الحديث. فما بقي صامتا ليس بالغير مفهوما لديك.

تقولين في رسالتك الأولى: "لو كنت أنا في نيويورك لكنت زرت مكتبك الفني في هذه الأيام" أفلم تزوري مكتبي قط؟ أليس وراء أثواب الذكرى الظارهة جسد خفي للذكرى؟ إنما مكتبي هيكلي وصديقي ومتحفي وجنتي وجحيمى. هو غاب تنادي فيها الحياة الحياة، وهو صحراء خالية أقف في وسطها فلا أرى سوى بحر من رمال وبحر من

أثير. إن مكتبي ياصديقتي هو منزل بدون جدران وبدون سقف، ولكن في مكتبي هذا أشياء كثيرة أحبها وأحافظ عليها.

أنا مولع بالآثار القديمة وفي زوايا هذا المكتب مجموعة صغيرة من طرئف الأجيال وبعض نفائسها كتماثيل وألواح مصرية ويونانية وزجاج فينيقي وخزف فارسي وكتب قديمة العهد ورسوم إيطالية وآلات موسيقية تتكلم وهي صامتة، ولابد من الحصول يوما ما على تمثال كلداني من الجر الأسود. إني أميل بكليتي إلى كل شيء كلداني فأساطير هذا الشعب وشعره وصلوته وهندسته بل وأصغر أثر أبقاه الدهر من فنونه وصنائعه ينبه في داخي تذكارات غامضة بعيدة ويعود بي إلى الماضي الغابر، ويجعلني أرى الحاضر من نافذة المستقبل. أحب الآثار القديمة وأشغف بها، لأنها من أثمار الفكرة البشرية السائرة بألف قدم من الظلام نحو النور تلك الفكرة الخالدة التي تغوص بالفن إلى أعماق البحار وتصعد به إلى المجرة.

أما قولك: "ما أسعدك أنت القانع بفنك" فقد جعلني أفكر طويلا.. لا يا مي لست بقانع ولا أنا بسعيد. في نفسي شيء لا يعرف القناعة، ولكنه ليس كالطمع ولا يدري ما السعادة غير أنه لا يشابه التعاسة. في أعماقي خفقان دائم وألم مستمر ولكنني لا أريد إبدال هذا ولا تغيير ذاك، ومن كان هذا شأنه فهو لا يعرف السعادة ولا يدري ما هي القناعة لكنه لا يشكو لأن في الشكوى ضربا من الراحة وشكلا من التفوق.

وهل أنت سعيدة وقانعة بمواهبك العظيمة؟ أخبريني يا مى: هل أنت قانعة وسعيدة؟ أكاد أسمعك هامسة: "لا لست بقانعة ولا أنا بسعيد: إن القناعة هي الاكتفاء، والاكتفاء محدود وأنت غير محدودة.

أما السعادة فهي أن يملأ المرء نفسه من خمرة الحياة، ولكن من كن كأسه سبعة آلاف فرسخ بالطول وسبعة آلاف فرسخ بالعرض لا ولن يعرف السعادة حتى تنسكب الحياة بكاملها في كأسه، أفليس كأسك يامي سبعة آلاف فرسخ وفرسخ؟

وماذا أقول عن "جوي المعنوى؟" لقد كانت حياتي منذ عام أو عامين لا تخلو من الهدوء والسلامة، أما اليوم فقد تبدل الهدوء بالضجيج والسلامة بالنزاع، إن البشر يلتهمون أيامي وليالي ويغمرون أحلامي بمنازعهم ومراميهم فكم مرة هربت من هذه المدينة الهائمة إلى مكان قصي، لأتخلص من الناس ومن أشباح نفسي أيضا. إنما الشعب الأمريكي جبار لا يكل ولا يمل ولا يتعب ولا ينام ولا يحلم، فإذا بغض هذا الشعب رجلا قتله بالإهمال، وإذا أحبه قتله بالانعطاف، فمن شاء أن يحيا في نيويورك فعليه أن يكون سيفا سنينا، ولكن في غمد من العسل: السيف أروع في قتل الوقت، والعسل لإرضاء الجائعين!

وسوف يجيء يوم أهرب فيه إلى الشرق. إن شوقي إلى وطني يكاد يذيبني، ولولا هذا القفص الذي حبكت قضبانه بيدي لاعتليت متن أول سفينة سائرة شرقا، ولكن أي رجل يستطيع أن يترك بناء صرف عمره بنحت حجارته وصفها؟ حتى إن كان ذلك البناء سجنا له فهو لا يقدر أو لا يريد أن يتخلص منه في يوم واحد.

سامحيني أيتها الصديقة العزية فقد أزعجتك بالكلام عن نفسي وبشكواي من أمور أدعي إلى الجهاد منها إلى التذمر.

إن استحسانك "المواكب" قد جعلها عزيزة لديّ. أما قولك بأنك ستظهرين أبياتها فمنة أحني رأسي، غير أنني أشعر بأن حافظتك خليقة بقصائد أسمى وأبلغ وأنبل من كل ما جاء في "المواكب"، بل ومن كل ما كتبته وأكتبه. وأما قولك في رسوم

الكتاب: "أنت أهل الفن، تبرزون هذه البدائع بقوى أثرية احتفظتكم عليها ملوك الجوزاء، فنأتي بغباوتنا أشقياء مظلومون ونحن بها أشقياء خاسرون"، لا فإني أستمحيك بالتمرد عليه و(ما أكثر تمردى) أنت يا مي منا وفينا، بل أنت بين بنات الفن وأبنائه كالوردة بين أوراقها. إن ما جاء في مقالتك التي نشرت في "المحروسة" عن رسوم المجنون لأكبر دليل على شعور فني عميق خاصة دقيقة وبصيرة نفاذة، ترى ما لا يراه غير القليل من الناس. ولست بمبالغ إذا قلت بأنك أول صبية شرقية مشت في غابة "الأخوات التسع"، (إشارة إلى الآلهات التسع في الميثولوجيا الإغريقية المشرفات على الآداب والفنون وقد عرفن بأسماء عديدة في عصور التاريخ القديم)، بقدم ثانية ورأس مرفوع وملامح منفرجة كأنها في بيت أبيها. ألا فأخبريني كيف عرفت كل ما تعرفين؟ وفي أي عالم جمعت خزائن نفسك؟ وفي أي عصر عاشت روحك قبل مجيئها إلى لبنان؟ إن في النبوغ سرا أعمق من سر الحياة.

وأنت تريدين أن تسمعي ما يقوله الغربيون عني فألف شكر لك على هذه الغيرة وهذا الاهتمام القوى. لقد قالوا الشيء الكثير وكانوا مبالغين في أقوالهم متطرفين في ظنونهم متوهمين وجود الجمل في وكر الأرنب، ويعلم الله ياصديقتي بأنني ما قرأت شيئا حسنا عني إلا ونحت في قلبى. إن الاستحسان نوع من المسئولية يضعها الناس على عواتقنا فتجعلنا نشعر بضعفنا، ولكن لابد من المسير حتى لوقوص الحمل الثقيل ظهورنا، ولا بد من استنباط القوة من الضعف. أنا باعث إليك بغلاف آخر بشيء من أقوال الجرائد والمجلات وستعلمين منها أن الغربيين قد ملوا أشباح أرواحهم وضروا من ذواتهم فأصبحوا يتمسكون بالغريب غير المألوف، خصوصا إذا كان شرقيا هكذا كان الشعب الأثيني بعد انقضاء عصره الذهبى. لقد بعثت منذ شهر أو أكثر بمجموعة من

أقوال الصحف في المجنون إلى أميل زيدان (تولى رئاسة تحرير مجلة "الهلال" سنة 1914 التي أسسها والده الأديب العلامة جرجي زيدان) وهو بالطبع من أصدقائك.

أحمد الله وأشكره على انقضاء الأزمة عندكم. ولقد كنت أقرا أخبار تلك المظاهرات فأتخيلك هائبة فأهاب.. مضطربة فاضطرب، ولكنني كنت أردد في الحالين قول شكسبير: Do not fear our person. There's such divinity doth hedge a king. That treason can but peep to what it would. Acts little of his will.

لا تخافي منا. فالملك تحيط به هالة من القداسة. وليس في مقدور الخيانة أن تبلغ ما ترمي إليه أو تحد من عزيمته.

وأنت يا مي من المحروسين وفي نفسك ملك يحميه الله من كل مكروه، وتسألين: ما إذا كان لكم من صديق في ربوعنا؟ أي والحياة وما في الحياة من حلاوة جارحة ومرارة مقدسة إن لكم في ربوعنا صديقا إرادته تدافع عنكم ونفسه ترغب في الخير لكم وإبعاد السوء عنكم وتحميكم من كل أذى. وقد يكون الصديق الغائب أدنى وأقرب من الصديق الحاضر. أفليس الجبل أكثر هيبة وأشد وضوحا وظهورا لسائر في السهل منه لساكينه؟

ها قد غمر المساء هذا المكتب بوشاحه فلم أعد أرى ما تخطه يدي. وألف تحية لك وألف سلام عليك والله يحفظك ويحرسك دائما.

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

عزيزتي الآنسة مي (3)

نيويورك 25 يوليو 1919

منذ كتبت إليك حتى الآن وأنت في خاطري. ولقد صرفت الساعات الطوال مفكرا بك مخاطبا إياك مستجوبا خفاياك، مستقصيا أسرارك، والعجيب أني شعرت مرات عديدة بوجد ذاتك الأثيرية في هذا المكتب ترقب حركاتي وتكلمني وتحاورني وتبدي رأيها في مآتي وأعمالى.

أنت بالطبع تستغربين هذا الكلام، وأنا أستغرب حاجتي واضطراري إلي كتابته إليك. وحبذا لو كان بإمكاني معرفة ذلك السر الخفي الكائن وراء هذا الاضطراب وهذه الحاجة الماسة.

قد قلت لي مرة: "ألا إن بين العقول مساجلة وبين الأفكار تبادلا قد لا يتناوله الإدراك الحسي، ولكن من ذا الذي يستطيع نفيه بتاتا من بين أبناء الوطن الواحد؟".

إن في هذه الفقرة الجميلة حقيقة أولية كنت فيما مضى أعرفها بالقياس العقلى، أما الآن فإني أعرفها بالاختيار النفسى. ففي الآونة الأخيرة قد تحقق لي وجود رابطة معنوية دقيقة قوية غريبة تختلف بطبيعتها ومزاياه وتأثيرها عن كل رابطة أخرى، فهي

أشد وأصلب وأبقى بما لا يقاس من الورابط الدموية والجينية حتى والأخلاقية. وليس بين خيوط هذه الرابطة خيط واحد من غزل الأيام والليالي التي تمر بين المهد واللحد. وليس بين خيوطها خيط غزلته مقاصد الماضي أو رغائب الحاضر أو أماني المستقبل، فقد تكون موجودة بين إثنية لم يجمعهما الماضي ولا يجمعهما الحاضر وقد لا يجمعهما المستقبل. وفي هذه الرابطة يا مي في هذه العاطفة النفسية في هذا التفاهم الخفى، أحلام أغرب وأعجب من كل ما يتمايل في القلب البشري أحلام طي أحلام طي أحلام.

وفي هذا التفاهم يا مى أغنية عميقة هادئة نسمعها في سكينة الليل فتنتقل بنا إلى ما وراء الليلة، إلى ما وراء النهار، إلى ما وراء الزمن، إلى ما وراء الأبدية.

وفي هذه العاطفة يامي غصات أليمة لا تزول ولكنها عزيزة لدينا ولو استطعنا لما أبدلناها بكل ما نعرفه ونتخيله من الملذات والأمجاد.

لقد حاولت فيم تقدم إبلاغك ما لا ولن يبلغك إيها إلا ما يشابهه في نفسك. فإن كنت قد أبنت سرا معروفا لديك كنت من أولئك الذين قد حبتهم الحياة وأوقفتهم أمام العرش الأبيض، وإن كنت قد أبنت أمرا خاصا بي وحدي فلك أن تطعمي النار هذه الرسالة.

أستعطفك يا صديقتي أن تكتبي إلّي، واستعطفك أن تكتبي إلي ّ بالروح المطلقة المجردة المجنحة التي تعلو فوق سبل البشر. أنت وأنا نعلم الشيء الكثير عن البشر، وعن تلك الميول التي تقربهم إلى بعضهم البعض، وتلك العوامل التي تبعد بعضهم عن البعض.

فهلا تنحينا ولو ساعة واحدة عن تلك السبل المطروقة ووفقنا محدقين ولو مرة واحد بما وراء الليل، بما وراء النهار، بما وراء الزمن، بما وراء الأبدية؟

والله يحفظك يا مي ويحرسك دائما

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

عزيزتي الآنسة "مي" (4)

نيويورك 9 نوفمبر 1919

أنت حاقدة علّي ناقمة علّي، ولك الحق ومعك الحق، وما علّي سوى الامتثال، فهلا نسبت إثما اقترفته وأنا بعيد عن عالم المقاييس والموازين؟ هلا وضعت في "صندوق الذهب" مالا يستحق الحفظ في الصندوق الأثيري؟

إن ما يعرفه الحاضر يجهله الغائب وليس من العدالة أن تحسب جهل الغائب جريمة، فالجرائم لاتكون إلا في موضع الإدراك والمعرفة، وأنا لا أريد أن أسكب سهول قليلا من الرصاص المذاب أو الماء الغالي على أصابع العارفين المدركين لعلمي أن الجريمة نفسها عقاب المجرمين، وأن مصائب أكثر الناس في ما أسند إليهم من الأعمال.

لقد استأنست بذلك العنصر الشفاف الذي تتلاشى أمامه المسافة والحدود والحواجز المستوحشة لا تستأنس إلا بذلك العنصر ولا تستصرخ سواه ولا تستنجد غيره. وأنت أنت التي تعيشين كثيرا في عالم المعنى، تعلمين أن العنصر الشفاف فينا يتنحى عن جميع أعمالنا، ويبتعد حتى عن أجمل ميولنا البيانية، وأنبل رغائبنا الفنية فهو إن جاور

الشاعرية فينا لا ينظم ذاته نشيدا غنائيا ولا يضع خفاياه في الخطوط والألوان. كل بشري يستطيع التكلف بمنازعه واللعب بمطماعه والمتاجرة بأفكاره ولكن ليس بين البشر من يستطيع التكلف بوحشته أو اللعب بألمه أو المتاجرة بجوعه وعطشه. ليس بين الناس من يقدر أن يحول أحلامه من صورة إلى صورة أو ينقل أسرار نفسه من مكان إلى مكان. وهل بإمكان الضعيف والصغير فينا أن يؤثر في القوي والعظيم فينا؟ هل بإمكان الذات المقتبسة وهي من الأرض أن تحور وتغير الذات الوضعية وهي من السماء؟ إن تلك الشعلة الزرقاء تنير ولا تتغير وتحول ولا تتحول وتأمر ولا تأمر. وهل تظنين حقيقة وأنت أبعد الناس فكرا أن "التهكم الدقيق" ينبت في حقل يفلحه الألم وتزرعه الوحشة ويحصده الجوع والعطش؟ هل تظنين أن "النكتة الفلسفية" تسير بجانب الميل إلى الحقيقة والرغبة في المجرد المطلق؟ لا ياصديقتي أنت أرفع من الشك والارتياب. الشك يلازم الخائفين السلبيين والارتياب يلاحق من ليست لهم الثقة بنفوسهم، أما أنت فقوية إيجابية ولك الثقة التامة بنفسك، فهلا كنت مؤمنة بكل ما تضعه الأيام في راحتيك؟ هلا حولت عينيك عن المظاهر الجميلة إلى الحقيقة الجميلة؟

قد صرفت شهور الصيف في منزل منفرد منتصب كالحلم بين البحر والغاب فكنت كلما أضعت نفسي في الغاب أذهب إلى البحر فأجدها وكلما فقدتها بين الأمواج أعود إلى ظل الأشجار فألتقي بها. إن غابات هذه البلاد تختلف عن غابات الأرض كافة فهي غضة كثيفة متعرشة تعود بالذكرى إلى الأزمنة الغابرة إلى البدء إذ كانت الكلمة عند الله وكانت الكلمة لله! أما بحرنا فبحركم، وذلك الصوت المجنح الذي تسمعونه على شواطئ مصر نسمعه نحن على هذه الشواطئ، وذلك القرار الرهاوي الذي يملأ صدوركم بهيبة الحياة وهولها يملأ صدرنا الحياة وهيبتها. لقد أصغيت إلى نغمة

البحر في مشارق الأرض ومغاربها فكانت ولم تزل هي هي الأغنية الأزلية الأبدية التي تعلو وتهبط بالروح فتكسبها تارة الحزن وطور الطمأنينة.

لقد أصغيت إلى تلك النغمة حتى وعلى رمال الإسكندرية نعم على رمال الإسكندرية، وكان ذلك في صيف 1903 فسمعت إذ ذاك حديث الدهور من بحر المدينة القديمة مثلما سمعته بالأمس من بحر المدينة الحديثة، ذلك الحديث الذي سمعه للمرة الأولى، وأنا في الثامنة فاحترت بأمري وألبست على حياتي فأخذت أحارب بسؤلاتي الكثيرة صبر المرحومة أمي وجلدها ذلك الحديث الذي أسمعه اليوم فأطرح السؤالات ذاتها، ولكن على الأم الكلية فتجيبني بغير الكلام وتفهمني أمورا كلما حاولت إظهارها للآخرين تحولت الألفاظ في فمي إلى سكوت عميق. أنا اليوم وقد صرت في (الثمانين) مثلما كنت وأنا في الثامنة أجلس على شط البحر وأنظر إلى أبعد نقطة من الأفق الأزرق وأسأل ألف سؤال وسؤال: "ترى هل لنا من مجيب في ربوعكم؟" ترى هل تنفتح الأبواب الدهرية ولو لدقيقة واحدة لنرى ما وراءها من الأسرار والخفايا؟ أليس بإمكانكم أن تقولوا لنا كلمة واحدة عن تلك الأنظمة السرية النافذة حولنا في الحياة قبل أن يضع الموت نقابه الأبيض على وجوهنا؟" وأنت تسألين ما إذا كت لا "أستطيب الفائدة في التفكهة بلا إجهاد؟" إني أستطيب الفائدة أستطيبها إلى درجة قصوى، ولكن بعد أن أترجم لفظها إلى لغتي الخاصة!! أما الإجهاد فسلم نصعد عليه لنبلغ العلية. أنا بالطبع أفضل الصعود إلى عليتي طائرا، ولكن الحياة لم تعلم جانحي الرفرفة والطيران فماذا أفعل؟ وأنا أفضل الحقيقة الخفية على الحقيقة الظاهرة وأفضل الحاسة الصامتة اكتفاء واقتناعا على الحاسة التي تحتاج إلى التفسير والتعليل. غير أنني وجدت أن السكوت العلوي يبتدئ دائما بكلمة علوية؟

إني أستطيب الفائدة بل وأستطيب كل شيء في الحياة إلا الحيرة فإذا جاءت الفائدة وعلى منكبيها غمر من الحيرة أغمضت عيني وقلت في سري "هذا صليب آخر على أن أحمله مع المائة صليب التي أحملها"، وليست الحيرة بذاتها من الأمور المكروهة، ولكنني قد رافقتها حتى مللتها قد أكلتها خبزا وشربتها ماء وتوسدتها فراشا ولبستها رداء حتى صرت أتبرم من لفظ اسمها وأهرب من ظل ظلها.

أظن أن مقالتك في "المواكب" هي الأولى من نوعها باللغة العربية. هي أول بحث فيما يرمي إليه الكاتب بوضع كتاب. حبذا لو كان بإماكان أدباء مصر وسوريا أن يتعلموا منك استجواب أرواح الكتب دون أجسادها واستفسار ميول الشعراء النفسية قبل استقصاء مظاهر الشعر الخارجية. يجب علّي ألا أحاول إظهار امتناني الشخص على تلك المقالة النفيسة، لأنني أعلم أنها كتبت وأنت منصرفة عن كل شيء شخصي، وإذا ما حاولت إظهار امتناني القومي بصور عمومية أوجب على ذلك كتابة مقالة في تلك المقالة، وهذا أمر يحسبه الشرقيون في الوقت الحاضر من الأمور التي لا تجاور الذوق السليم! ولكن سيجيء يوم أقول فيه كلمتي في "مى" ومواهبها وستكون كلمة هائلة! وستكون طويلة عريضة! وستكون صادقة لأنها ستكون جميلة.

إن الكتاب الذي سيصدر في هذا الخريف هو كتاب رسوم خال من "ضجيج التمرد والعصيان" ولولا إضراب العمال في المطابع لظهر منذ ثلاثة أسابيع. وفي السنة القادمة سيصدر كتابان الأول "المستوحد" وربما دعوته باسم آخر، وهو مؤلف من قصائد وأمثال والثاني كتاب رسوم رمزية باسم "نحو الله"، وبهذا الأخير انتهى من عهد وابتدئ بعهد آخر. وأما "النبي" فكتاب فكرت به منذ ألف سنة، ولكنني لم أكتب فصلا من فصوله حتى أواخر السنة الغابرة، وماذا عسى أن أقول لك عن هذا النبي؟ هو

ولادتي الثانية ومعموديتي الأولى. هو الفكرة الوحيدة التي تجعلني حربا بالوقوف أمام وجه الشمس، ولقد وضعني هذا النبي قبل أن أحاول وضعه، وألفني قبل أن أفكر بتأليفه وسيرني صامتا وراءه سبعة آلاف فرسخ قبل أن يقف ليملي على ميوله ومنازعه.

أرجوك أن تسألى رفيقي ومعاوني العنصر الشفاف عن هذا النبي وهو يقص عليك حكايته. اسألى العنصر الشفاف اسأليه في سكينة الليل عندم تنعتق النفس من قيودها وتتملص من أثوابها وهو يبوح لك بأسرار هذا النبي وبخفايا من تقدمه من الأنبياء أجمعين.

أنا أعتقد يا صديقي أن في العنصر الشفاف من العزم ما لو وضعنا ذرة منه تحت جبل لانتقل من مكان إلى مكان آخر، وأعتقد بل وأعلم أننا نستطيع أن نمد ذلك العنصر سلكا بي بلادا وبلاد، فنعلم بواسطته كلم ما نريد أن نعلمه ونحصل على كل ما نشتاق إليه ونبتغيه.

ولدي أمور كثيرة أريد أن أقولها عن العنصر الشفاف وغيره من العناصر، ولكن على أن أبقى صامتا عنها. وسوف أبقى صامتا حتى يضمحل الضباب وتنفتح الأبواب الدهرية ويقول لي ملاك الرب: "تكلم فقد ذهب زمن الصمت وسر فقد طال وقوفك ف ظلال الحيرة؟.

أى: متى ياترى تنفتح الأبواب الدهرية؟ هل تعلمين؟ هل تعلمين متى تنفتح الأبواب الدهرية ويضمحل الضباب؟

والله يحفظك يا "مي" ويحرسك دائما

المخلص

جبران خليل جبران

دعوة وليمة فنية

نيويورك 15 نوفمبر 1919

وفي 15 نوفمبر1919 تلقت مي زيادة رسالة يحمل مغلفها التاريخ آنف الذكر، كانت عبارة عن بطاقة دعوة لمعرض فني كبير أقيم في نيويورك لفنانين أجانب وأمريكان. وقد كتب جبران على تلك البطاقة إلى مي العبارة التالية:

(هذه دعو إلى وليمة فنية فهلا تكرمت وشرفتينا!!)

محبوبتي الصغيرة

نيويورك 30 نوفمبر 1919

وبعد أسبوعين أي بتاريخ 30 نوفمبر 1919 استنادا إلى ختم البريد في مصر المسجل على المغلف تلقت مي رسالة أخرى تتضمن دعوة من نادي "ماكدويل" في نيويورك لحضور أمسية فنية أدبية في 2 ديسمبر 1919 يقرأ فيه جبران بعضا من حكاياته وأمثاله وينشد فيها "ويتر باينرز" بعضا من أناشيده وقد كتب جبران عل هامش البطاقة بالإنجليزية ما يلى:

Would that you were here to lend wings to my voice and turn my mutterings into songs. Yet I shall read knowing that among the "strangers" an invisible "friend" is listening and smiling sweetly and tenderly

(حبذا لو كنت هنا لتعيري أجنحة إلى صوتي وتحيلي همهماتي إلى تراتيل. ومع ذلك فسوف أقرأ وأنا واثق أن لي بين الغرباء صديقا لا يرى يسمعني ويبتس لي بعذوبة وحنان).

عزيزتي مي

نيويورك 18 يناير 1920

تريدين أن تعلمي بالضبط معنى ندامتي وما وراء طلبي المغفرة منك من الأسرار النفسية. وإليك بالضبط البسيط ما كان وسيكون وراء تلك الندامة، وتلك المعاني وتلك الأسرار وتلك النفسيات.

لم أندم على كتابة تلك لرسالة المعروفة لديك "بالنشيد الغنائى":

– ولن أندم.

–لم أندم على أصغر حرف فيها لا ولا على أكبر نقطة فيها

– ولن أندم.

–لم أكن في ضلال لذلك لم أرد للاهتداء.

– وكيف يا ترى أندم على أمر موجود الآن في نفسي مثلما كان موجودا إذ ذاك؟

– وأنا لست ممن يندمون على وضع ما في نفوسهم بين شفاههم.

– ولست ممن ينفون في يقظته ما يثبتونه في أحلامهم لأن أحلام هي يقظتي ويقظتي هي أحلامي لأن حياتي لا تقسم إلى خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء.

– أما الإثم الذي اقترفته، أو توهمت بأني اقترفته وأنا بعيد عن عالم الموازين والكمية، فهو هذا: بعد أن قرأت كلامك عن ذلك اللبناني الذي زارك قبل مغادرتك القاهرة إلى رمال الإسكندرية، أعني ذلك الرجل الذي "بكل أسف لم تسكبي سهوا بعض قطرات من الماء الغالي على يده "معاقبة له على" أمر غير محمود"، بعد أن قرأت كلامك هذا انتبهت لشيء كان من الواجب علّي أن أفطن له قبل أن أضع تلك الرسالة في صندوق البريد فظننت أو تخيلت أو تصورت أن تلك الرسالة قد سببت لك بعض الانزعاج من هذه الوجهة. ومن منا لا يتأفف ويتبرم إذا علم أن الأشياء المختصة به دون سواه قد مرت بين أصابع وأمام عيون من ليس لهم الحق بمعرفتها؟

هذا هو الأمر الذي انتبهت له فندمت وهذا هو الشيء الوحيد الذي طلبت إليك وضعه في صندوق النسيان. وقد دعوت "قلم المراقبة" والأسباب التي أوجدته والنتائج التي أوجدتها "بعالم الموازين والكمية" دعوته بهذا الاسم لبعده عن العالم الذي كان يشغل فكري حينئذ بعد الجحيم عن غابة الحق.

ولقد عرفت في العام الأغبر عن "قلم المراقبة" ما يضحك البوم بين القبور! فقد كان بعض الفتيان الموظفين في تلك الإدارة النبيلة يفتحون الرسائل الواردة إلى من الشرق ويذيلونها بالحواشي والسلامات والتحيات والملاحظات السياسية والعمرانية والأدبية وبعضهم كان يطبل من المال لأغراض لم أسمع بمثلها.

وأغرب من هؤلاء جميعهمم مراقب في دمشق وجد فسحة بيضاء واسعة في رسالة موجهة إلى فنمقها وطرزها بقصيدة طويلة يمدحني بها! ولو أخبرتك حكاية تلك القصيدة بتمامها لغضبت علّي.

أما تلك الرسالة المعروفة "بالنشيد الغنائي" فهي مني وبي وفي، وهي أنا مثلما كنت، ومثلما سأكون وهي الآن مثلما كانت بالأمس، ومثلما ستكون في الغد، فهلا آمنت وصدقت يا توما (هو القديس توما أحد رسل المسيح الاثني عشر. لم يؤمن بقيامته إلا بعد أن رأى آثار جراحاته ووضع فيها إصبعه. وهو الذي أدخل المسيحية إلى الهند..) أتريدين وضع إصبعك في الجرح يا مي؟

واسمحي لي أن أقول ثانية إنني أكره التهكم الدقيق وغير الدقيق بين الأصدقاء وأكره النكتة الفلسفية وغير الفلسفية بين المتفاهمين بالروح، وأكره التكلف والتصنع في كل أمر حتى وفي الصعود إلى السماء. وأما سبب كرهي هذه الأشياء فهو ما أراه حولي في كل دقيقة من مظاهر هذه المدينة الآلية ونتائج هذا الاجتماع السائر على دواليب لأنه بدون أجنحة.

أظن أن السبب الذي يجعلك أن تعزي إلى "التهكم الدقيق" هو بعض ما جاء في "المجنون"، وإذا صح ظني فسأكون أول ضحايا ذلك الكتاب لأن "المجنون"، ليس أنا بكليتي والأفكار والمنازع التي أردت بيانها بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدي من الأفكار والمنازع واللهجة التي وجدتها مناسبة لميول ذلك المجنون ليست اللهجة التي اتخذها عندما أجلس لمحادثة صديق أحبه وأحترمه، ولكن إذا كان لابد من الوصول إلى حقيقتي بواسطة ما كتبته فما عسى يمنعك عن اتخاذ فتى الغاب في كتاب "المواكب" لهذه الغاية بدلا من "المجنون" وصراخه. وسوف يتحقق لديك بأن "المجنون" لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة من معادن مختلفة. لا أنكر أن "المجنون" كان حلقة طويلة مصنوعة من معادن مختلفة. لا أنكر أن "المجنون" كان حلقة خشنة

مصنوعة من حديد، ولكن هذا لا يدل على أن السلسة بكليته ستكون من الحديد الخشن، لكل روح فصول يا مي وشتاء الروح ليس كربيعها ولا صيفها كخريفها.

قد سررت جدا لانتسابك إلى عائلة لاوية (نسبة إلى لاوي الابن الثالث ليعقوب وقد خرج اللاويون كهنة بني إسرائيل من سبطه)، سررت إلى درجة قصوى وسبب هذا السرور الهائل هو هذا أنا ابن كاهن روماني!! نعم فقد كان جدي والد أمى. كاهنا متعمقا بالأسرار اللاهوتية! (بيد أنه كان مولعا بالموسيقى الكنائسية وغير الكنائسية ولهذا قد غفرت له كهنوتيته) وقد كانت أمي أحب أبنائه إليه أشبههم به. الغريب أنها عزمت واستعدت وهي في ربيع العمر للدخول إلى دير القديس سمعان للراهبات في شمال لبنان. أما أنا فقد ورثت عن أمي تسعين بالمائة من أخلاقها وميولها (لا أقصد بذلك أنني أماثلها من حيث الحلاوة والوداعة وكبر القلب)، ومع أنني أشعر بشيء من البغضاء نحو الرهبان، فأنا أحب الراهبات وأباركهن في قلبى. وقد يكون حبي لهن ناتجا عن تل الرغائب السرية التي كانت تشغل خيال أمي في صباها وإني أذكر قولها لي مرة وقد كنت في العشرين:

لو دخلت الدير لكان ذلك أفضل لي وللناس.

فقلت لها: لو دخلت الدير لما جئت أنا.

فأجابت: أنت مقدر يا ابنى.

فقلت: نعم ولكن قد اخترتك أما لي قبل أن أجيء بزمن بعيد.

فقالت: لو لم تجئ لبقيت ملاكا في السماء.

فقلت: لم أزل ملاكا!

فتبسمت وقالت: أين جوانحك؟

فوضعت يدها على كتفي قائلا: هنا.

فقالت: متكسرة!

بعد هذا الحديث بتسعة أشهر ذهبت أمي إلى ماوراء الأفق الأزرق. أما كلمتها "متكسرة" فظلت تتمايل في نفسي ومن هذه الكلمة قد غزلت ونسجت حكاية "الأجنحة المتكسرة".

لا يا مي لم أكن قط من جدود جدود أمى. لقد كانت ولم تزل أما لي بالروح. وإني أشعر اليوم بقربها مني و تأثيرها علّي ومساعدتها لي أكثر مما كنت أشعر به قبل أن تذهب، أكثر بما لايقاس، ولكن هذا الشعور لا ينفي الروابط الأخرى الكائنة بيني وبين أمهاتي وأخواتي بالروح وليس هناك من فرق بين شعوري نحو أمي وشعوري نحو أمهاتي سوى الفرق الموجود بين الذكرى الواضحة والذكرى الضئيلة.

هذا شيء قليل عن أمى. وإذا جمعتنا الأيام أخبرتك الشيء الكثير عنها وإني لا أشك بأنك ستحبينها. ستحبينها لأنها تحبك. والأرواح السابحة هناك تحب الأرواح الجميلة السائرة هنا. وأنت يا مي روح جميلة إذن لا تستغربي قولي "إنها تحبك" .

أما الوجه الآخر الذي نشر في "الفنون" فهو وجهها في حالة الألم النفسى. والوجه المنشور في أول صفحة من "عشرون رسما" (عنوان لكتاب يتضمن رسوما بريشة جبران كتبت مقدمته اليس رافائيل نشر في نيويورك سنة 1919)، هو وجهها أيضا ولقد دعوته "نحو اللانهاية" لأنه يمثلها في آخر دقيقة من حياتها هنا وأول دقيقة من حياتها هناك.

وأما من جعهة عائلة والدي فإني أستطيع أن أتبجح واتباهى بثلاثة أو أربعة من الكهان مثلما تباهيت وتبجحت بكهنة وقس بيت زيادة!! أقر لك بميزة واحدة وهي

وجود القس عندكم إن شجرتنا لم تثمر من هذا النوع! ولكن قد ظهر عندنا خور و"سقفس"، أي خوري ونصف خوري، فهل ظهر عندكم من هذا الجنس؟ ولقد كان هذا الخور وسقفس أو المونستيور الجبراني يصلي لله ويبتهل لله ليرجعني إلى حضن الكنيسة الجامعة الرسولية مثلما أرجع الابن الشاطر إلى أبيه! وحضن الكنيسة كما تعلمين يشابه صدر ابني إبراهيم، الأول لراحة الخطأة، والثاني لراحة الأموات.

والمسيحي المسكين لا يتملص من هذا حتى يهبط في ذاك وأنا والحمد للسماء لم أكن من الخطأة ولن أصير من الأموات! بيد أنني أشفق على إبراهيم إجمالا وعل صدر إبراهيم خصوصا.

هذا ولا يغرب عن بالك أن نصف سكان شمال لبنان من الكهنة والقساوسة والنصف الثاني من أبناء وأحفاد الكهنة! فهل في بلدكم، وأظنها غزير، (قرية في لبنان تقع بالقرب من مسقط رأس مي زيادة أي قرية شحتول كانت تؤمها للاصطياف)، مثل ذلك؟ أما في بلدنا، بشر (مسقط رأس جبران) فمن الصعوبات إحصاء عدد الكهان والرهبان!

أجل لنتحدث عن كتاب "دمعة وابتسامة" فأنا لست بخائف! ظهر هذا الكتاب قبل نشوب الحرب بمدة قصيرة. وقد بعثت إليك بنسخة منه يوم صدوره. نعم قد بعثت إليك بنسخة من كتاب "دمعة وابتسامة" يوم صدوره من مطبعة الفنون، ولكنني لم أسمع منك كلمة واحدة عن وصولها فتأثرت ولم أزل متأثرا!!

أما مقالات "دمعة وابتسامة" فهي أول شيء نشر لي في الجرائد. هي من حصرم كرمي وقد كتبتها قبل "عرائس المروج" بزمن، ولقد شاء نسيب عريضة فجمعها وأضاف إليها مقالتين كتبتا في باريس منذ 12 سنة. سامحه الله! لقد كتبت ونظمت قبل "دمعة

وابتسامة"، أعني بين الطفولية والشباب المجلدات الضخام! ولكنني لم أقترف جريمة نشرها ولن أفعل. وأنا باعث إليك بنسخة ثانية من "دمعة وابتسامة: مع الأمل بأنك ستنظرين إلى روحها لا إلى جسدها.

أنا من الميالين إلى شارل جيران (شاعر فرنسي له عدة دواوين من الشعر العاطفي الرقيق)، ولكنني أشعر بأن المدرسة التي ينتمي إليها أو الشجرة التي هو غصن من غصونها لم تكن في الغابة العلوية. إن الشعر الفرنسي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين كان خاتمة لشيء وجد بدلا من أن يكون بداية لشيء غير موجود، أعني غير موجود في عالم الحواس. ففي عقيدتي أن رودان النحات (وهو المثال الفرنسي المشهور الذي تأثر به جبران)، وكيريار المصور (رسام فرنسي اشتهرت لوحاته بأنها كانت تعتمد على أرضية من الضباب)، وديبوسي الموسيقي (من أشهر مؤلفي الموسيقى ومجدديها في القرن العشرين) قد ساروا على سبل جديدة فكانوا حقيقة من العظام، ولكن جبران ورفاقه كانوا وما برحوا يسيرون حتى الساعة على السبل التي رسمتها لهم الحالة المعنوية في أوروبا قبل زمن الحرب. ومع أنهم يشعرون بجمال الحياة وما في الحياة من الألم والغبطة والمظاهر والأسرار فهم يمثلون مساء عهد بدلا من صباح عهد آخر. وعندي أن كتاب وشعراء العالم العربي في أيامنه هذه يمثلون، ولكن بصورة مصغرة جدا نفس الفكرة ونفس الحالة ونفس العهد.

وعلى ذكر العالم العربي فإني أسألك: لماذا يا ترى لا تعلمين كتاب وشعراء مصر المسير على السبل الجديدة؟ أنت وحدك قادرة على ذلك فماذا يمنعك؟ أنت يا مي من بنات الصباح الجديد فلماذا لا تنبهين الراقدين؟ إن الصبية الموهوبة كانت وستكون بمقام ألف رجل موهوب. وإني لا أشك بأنك إذا ناديت تلك النفوس الضائعة الحائرة

المستعبدة بقوة الاستمرار أيقظت فيها الحياة والعزم والميل إلى الصعود نحو الجبل. افعلى هذا وثقي بأن من يسكب الزيت في السراج يملأ بيته نورا، أفليس العالم العربي بيتك وبيتى؟

أنت تتأسفين لأنك لا تستطيعين الحضور إلى "الوليمة الفنية"، وأنا أستغرب أسفك، هذا أستغربه جدا أفلا تذكرين ذهابنا سويا إلى المعرض؟ هل نسيت انتقالنا من صورة إلى صورة؟ هل نسيت كيف سرنا ببطء في تلك القاعة الواسعة نبحث ونتقد ونستقصي ما وراء الخطوط والألوان من الرموز والمعاني والمقاصد؟ هل نسيت ذلك؟ الظاهر أن "العنصر الشفاف" فينا يقوم بكثير من الأعمال والمآتي على غير معرفة منا فهو يسبح مرفرفا إلى الجهة الثانية من الأرض، ونحن في غرفة صغيرة نقرأ جرائد المساء. ويزور الأصدقاء البعيدين ونحن نجالس الأصدقاء القريبين ويسير في حقول وغابات بعيدة سحرية لم ترها عين بشري ونحن نسكب الشاي في فنجان سيدة تخبرنا عن الاحتفال بعرس ابنتها.

ما أغرب العنصر الشفاف فينا يا مي وما أكثر أعماله المجهولة لدينا، ولكن عرفناه أو لم نعرفه فهو أملنا ومحجتنا. وهو مصيرنا وكمالنا. وهو نحن في الحالة الربانية.

هذا وأنا أعتقد بأنك إذا أجهدت حافظتك قليلا فستذكرين زيارتها إلى المعرض. فهلا فعلت؟

لقد طالت رسالتى – ومن يجد لذة في شيء أطاله.

قد ابتدأت بهذا الحديث قبل نصف الليل وها قد صرت بين نصف الليل والفجر، ولكنني للآن لم أقل كلمة واحدة مما أردت أن أقوله عندما ابتدأت. إن الحقيقة الوضعية فينا ذلك الجوهر المجرد ذلك الحلم الملتف باليقظة لا يتخذ غير السكوت مظهرا وبيانا.

نعم كان بقصدي أن أسألك ألف سؤال وسؤال، وها قد صاح الديك ولم أسألك شيئا. كان بقصدي أن أسألك مثلا ما إذا كانت لفظة "سيدى" موجودة حقيقة في قاموس الصداقة؟ لقد فتشت عن هذه اللفظة في النسخة الموجودة لدي من هذا القاموس ولم أجدها.. فاحترت بأمري غير أنني أشعر بأن نسختي هي النسخة المصححة – ولكن قد أكون غير مصيب!

هذا سؤال صغير أما السؤالات الكبيرة فأستركها إلى فرصة أخرى – إلى ليلة أخرى – فليلتي هذه قد شاخت وهرمت، وأنا لا أريد أن أكتب إليك في ظلال الليالي المسنة.

وإني أرجو أن يملأ العام الجديد راحتيك بالنجوم.

والله يحفظك يا مي ويحرسك

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

بعد أن ختمت هذه الرسالة فتحت نافذتي فوجدت المدينة متشحة برداء أبيض والثلج يتساقط بهدوء وعزم وغزارة، فتهيبت لهذا المشهد الجميل بطهره ونقاوته وعدت بالفكر إلى شمال لبنان إلى أيام حداثتي عندما كنت أصنع التماثيل من الثلج ثم تطلع الشمس فتذيبها.

إني أحب عواصف الثلج، محبتي لكل أنواع العواصف. وسأخرج في هذه الدقيقة وأمشي تحت هذه العاصفة البيضاء. ولكنني لا ولن أمشي وحدي.

جبران

يا صديقتي يا مي

نيويورك 3 نوفمبر 1920

لم يكن سكوتي في الآونة الأخيرة سوى الحيرة والالتباس، ولقد جلست مرات بين حيرتي والتباسي في هذا "الوادى" لأحدثك وأعاتبك، ولكنني لم أجد ما أقوله لك. لم أجد ما أقوله يا مي، لأنني كنت أشعر بأنك لم تتركي سبيلا للكلام، ولأنني أحسست بأنك تريدين قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب وتمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح.

جلست مرات في هذه الغرفة ونظرت طويلا إلى وجهك ولكنني لم أتلفظ بكلمة. أما أنت فكنت تحدقين بي وتهزين رأسك وتبتسمين ابتسامة من يجد لذة في تلبك وتشويش جليسه.

وماذا أقول لك الآن ورسالتك العذبة أمامى؟ إن هذه الرسالة العلوية قد حولت حيرتي إلى الخجل. أنا مخجول من سكوتي ومخجول من ألمي ومخجول من الكبرياء التي جعلتني أضع أصابعي على شفتي وأصمت. كنت بالأمس أحسبك "المذنبة"، أما اليوم وقد رأيت حلمك وعطفك يتعانقان كملاكين فقد صرت أحسب نفسي المذنب.

اسمعي يا صديقتي فسأخبرك عن أسباب سكوتي وألمى:

حياتي حياتان حياة أصرفها بالعمل والبحث ومخالطة الناس ومصارعة الناس واستقصاء السر الخفي في أعماق الناس، وحياة أخرى أصرفها في مكان قصي هادئ مهيب مسحور لا يحده مكان ولا زمان. ففي العام الغابر كنت أن بلغت ذلك المكان البعيد ألتفت فأرى روحا ثانية جالسة بجانب روحي تبادلها ما هو أدق من الأفكار وتشاركها بما هو أعمق من العواطف. فعزوت هذا الأمر في البداية إلى أوليات بسيطة اعتيادية، ولكن لم يمر شهران إلا وتقرر لدي أن هناك سرا أبعد من الأوليات وأدق من الاعتياديات. الغربت أنني كنت أعود من هذه السفرات النفسية شاعرا بيد شبيهة بالضباب تلامس وجهي وفي بعض الأحايين كنت أسمع صوتا دقيقا ناعما كلهاث الطفل متموجا في أذنى.

يقول بعض الناس إنني من "الخياليين"، وأنا لا أعرف ماذا يعنون بهذه الكلمة ولكنني أعرف أنني لست بخيالي إلى درجة الكذب على نفسى. ولو حاولت الكذب على نفسي فنفسي لا تصدقنى.

النفس يا مي لا ترى في الحياة إلى ما بها ولا تؤمن إلا باختباراتها الخصوصية وإذا ما اختبرت أمرا صار غصنا في شجرتها. وأنا قد اختبرت أمرا في العام الغابر. قد اختبرته ولم أتخيله، اختبرته مرات عديدة. اختبرته بنفسي وعقلي وحواسى. اختبرته وكان بقصدي أن أكتمه كشيء خصوصى، ولكنني لم أكتمه بل أظهرته لصديقة لى، أظهرته لها لأنني شعرت إذ ذاك بحاجة ماسة إلى إظهاره، وهل تعلمين ماذا قالت لي صديقتى؟ قالت لي على الفور: "هذا نشيد غنائى"! لو قيل لوالدة تحمل طفلها على منكبيها "هذا تمثال من الخشب وأنت تحميلنه" بـ"عياقة"، فبماذا ياترى تجيب تلك الوالدة؟ وبماذا تشعر؟

ومرت الشهور وهذه الكلمة "نشيد غنائى" تحفر في قلبى. ولم تكتفي صديقتى! لم تكتف بل ظلت واقفة لي بالمرصاد فلم أقل كلمة إلا وذيلتها بالتعنيف ولم أحدق بشيء إلا وأخفته وراء القناع ولم أمد يدا إلى وثقبتها بمسمار.

بعد ذلك قنطت. وليس بين عناصر النفس عنصر أمر من القنوط. ليس في الحياة شيء أصعب من أن يقول المرء لنفسه: "لقد غلبت".

والقنوط يا مي جزر لكل مد في القلب. والقنوط يا مي عاطفة خرساء. لذلك كنت أجلس أمامك في الشهور الأخيرة وأنظر طويلا إلى وجهك دون أن أنبث ببنت شفة، لذلك لأكتب بدورى. لذلك كنت أقول في سرى: (لم يبق لي دور)، ولكن في قلب كل شتاء ربيع يختلج وراء نقاب كل ليل صباح يبتسم. وها قد تحول قنوطي إلى شكل من الأمل.

ما أقدس تلك الساعة المهيبة التي رسمت فيها صورة "نحو اللانهاية". وما أعذب وأهيب المرأة التي تضع شفتيها على عنق امرأة أخرى وتناجيها. وما أبهى ذلك النور الذي يتكلم في أعماقنا ما أبهى ذلك النور يا مي.

وماذا أقول عن رجل أوقف الله بين امرأتين، امرأة تحوك من أحلامه اليقظة، وامرأة تحوك من يقظته الأحلام.؟ ماذا أقول عن قلب وضعه الله بين سراجين؟ ماذا أقول عن هذا الرجل؟ هل كئيب؟ لا أدري، ولكنني أعلم أن الأنانية لا تجاور كآبته. هل هو سعيد؟ لا أدري ولكنني أعلو أن الأنانية لا تقترب من سعادته. هل هو غريب عن هذا العالم؟ لا أدري ولكنني أسألك ما إذا كنت تريدين أن يبقى غريبا عنك؟ هل هو غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسه؟ لا أدري ولكنني أسألك ما إذا كنت لا تريدين محادثته بلغة أنت أعرف الناس بها؟

أولست أنت أيضا يا مي غريبة عن هذا العالم؟ ألست بالحقيقة غريبة عن محيطك وعن كل ما في محيطك من الأغراض والمنازع والمآتي والمرامى؟ أخبريني أخبريني يا مي هل في هذا العالم كثيرون يفهمون لغة نفسك؟ كم مرة يا ترى لقيت من يسمعك وأنت ساكتة ويفهمك وأنت ساكتة ويطوف معك في قدس أقداس الحياة وأنت جالسة قبالته في منزل بين المنازل؟

أنت وأنا من الذين حباهم الله بالأصدقاء والمحبين والمريدين الكثيرين، ولكن قولي لي هل يوجد بين هؤلاء الغيورين المخلصين من يستطيع الواحد منا أن يقول له "ألا فاحمل صليبي عني يوما واحد؟" هل بينهم من يعرف أن وراء أغانينا أغنية لا تسجنها الأصوات ولا ترتعش بها الأوتار؟ هل بينهم من يعرف الفرح في كآبتنا والكآبة في فرحنا؟

تقولين لي "أنت فني وأنت شاعر ويجب عليك أن تكون سعيدا مقتنعا لأنك فني وشاعر، "ولكن يامي أنا لست بفني ولا بشاعر. قد صرفت أيامي وليالي مصورا وكاتبا ولكن: "أنا" لست في أيامي وليالٍ. أنا ضباب يا مي. أنا ضباب وفي الضباب وحدتي وفيه وحشتي وانفرادي وفيه جوعي وعطشي. ومصيبتي أن هذا الضباب وهو حقيقي يشوق إلى لقاء ضباب آخر في الفضاء. يشوق إلى استماع قائل يقول: "لست وحدك نحن اثنان أنا أعرف من أنت".

أخبريني أخبريني يا صديقتي أيوجد في هذا العالم من يقدر ويريد أن يقول لي: "أنا ضباب آخر أيها الضباب، فتعال نخيم على الجبال وفي الأودية. تعال نسير بين الأشجار وفوقها تعال نغمر الصخور المتعالية. تعال ندخل معا إلى قلوب المخلوقات وخلاياها تعال نطوف في تلك الأماكن البعيدة المنيعة غير المعروفة: "قولي لي يامي أيوجد في ربوعكم من يريد ويقدر أن يقول لي ولو كلمة واحدة من هذه الكلمات؟".

وأنت تريدين أن أبتسم "وأعفو".

لقد ابتسمت كثيرا منذ هذا الصباح. وها أنا أبتسم في أعماقي وأبتسم في كليتي وأبتسم طويلا وأبتسم كأنني لم أخلق إلا للابتسام. أما "العفو" فكلمة هائلة فتاكة جارحة أوقفتني مخجولا متهيبا أمام الروح النبيلة التي تتواضع إلى هذا الحد وجعلتني أحني رأسي طالبا منها العفو. أنا وحدي المسيء. قد أسأت في سكوتي وفي قنوطي لذلك أستعطفك أن تغتفري ما فرط مني وتسامحيني.

كان الأحرى بنا تصدير هذا الحديث بالكلام عن كتاب "باحثة البادية" (اسم مستعار اتخذته الكاتبة المصرية ملك حفني ناصف، واتخذته مي عنوانا للسيرة التي وضعتها عن ملك ونشرتها عام 1920)، ولكن للخصوصيا دالة علينا وفي الخصوصيات قوة تجتذبنا إليها من أقصى الأمور وأجلها.

ما قرأت قط كتابا عربيا أو غير عربي مثل كتاب "باحثة البادية". لم أر في حياتي صورتين مرسومتين بمثل هذه الخطوط وهذه الألوان. لم أر في حياتي صورتين في إطار واحد صورة امرأة أدبية مصلحة وصورة امرأة أكبر من أدبية وأعظم من مصلحة. لم أر في حياتي وجهين في مرآة واحدة وجه امرأة يخفي نصفه ظل الأرض ووجه امرأة يغمره نور الشمس. قلت "وجه امرأة يخفي نصفه ظل الأرض؟ لأنني شعرت منذ أعوام ولم أزل أشعر بأن باحثة البادية لم تتملص من محيطها المادي تتجرد عما يساورها من المؤثرات القومية والاجتماعية حتى حل الموت قيوده. أما الوجه الثاني الوجه اللبناني المغمور بكليته بنور الشمس فهو في عقيدتي وجه أول امرأة شرقية تعالت حتى بلغت ذلك الهيكل الأثيري حيث تنزع الأرواح أجسادها المصنوعة من غبار التقاليد والعادات والزوائد وقوة الاستمرار.

هو وجه أول امراة شرقية أدركت وحدة الوجود بما في الوجود من الخفي والظاهر ومن المعروف وغير المعروف. وغدا بعد أن يطرح الزمن ما يكتبه الكتاب وينظمه الشعراء في (هوة) النسيان يظل كتاب "باحثة البادية" موضوع إعجاب الباحثين والمفكرين والمستيقظين. أنت يا مي صوت صارخ في البرية. أنت صوت رباني والأصوات الربانية تبقى متموجة في الغلاف الأثيري حتى نهاية الزمن.

والآن على أن أجيب عن كل سؤال من سؤالات اللذيذة. على ألا أنسى شيئا أولا "كيف أنا؟" لأفكر في الآونة الأخيرة بكيفية أنا، بيد أنني أرجح أنني في حالة حسنة رغم ما في حياتي اليومية من الرفاصات المتباينة والدوالية المختلفة بالصورة والحجم. "وماذا أكتب؟" أكتب سطرا أو سطرين بين كل مساء وصباح. قلت بين كل مساء وصباح لأنني في الوقت الحاضر أصرف نور نهاري مهموكا برسوم زيتية كبيرة على إتمامها قبل نهاية هذا الشتاء. ولولا هذه الصور والمعاهدة التي تربطني بها لكنت صرفت هذا الشتاء بين باريس والشرق. "وهل أشتغل كثيرا؟" أشتغل دائما أشتغل حتى في نومي أشتغل وأنا جامد كالصخر، ولكن شغلي الحقيقي ليس بالكتابة أو التصوير.. في أعماقي يا مي حركة أخرى لا علاقة لها بالكلام ولا بالخطوط والألوان. فأشغل الذي ولدت له لا يتناول الريشة والقلم. "وما لون البذلة التي أرتديتها اليوم؟" من عوائدي أن أرتدي بذلتين في وقت واحد بذلة من نسج الناسجين وخياطة الخياطين وبذلة من لحم ودم وعظام! أما اليوم فإني أرتدي ثوبا واحدا طويل الأذيال واسع الجوانب عليه أثر الحبر والألوان وهو بالإجمال لا يختلف عن ملابس الدراويش إلا بنظافته! أما الثوب الثاني المصنوع من لحم ودم وعظام فهو مطروح في الغرفة المحاذية لأني أفضل محادثتك وبعيد بعيد عنى. "وكم سيجارة دخنت منذ الصباح؟" ما أعذب هذا السؤال وما أصعب

الجواب عليه! هذا يا مي يوم تدخين بتدخين فقد حرقت منذ صباحه أكثر من عشرين سيجارة! والتدخين عندي لذة لإعادة قاهرة فقد يمر بي الأسبوع الكامل بدون سيجارة واحدة. نعم دخنت اليوم أكثر من عشرين سيجارة. "والحق عليك! فلو كنت وحدي في هذا "الوادى" لما دخت أبدا!! ولكنني لا أريد أن يكون مسجونا؟ وأما بحار الرمل وبحار الأثير فهي اليوم مثلما كانت بالأمس عميقة كثيرة الأمواج وبدون شواطئ. والسفينة التي أخوض بها هذه البحار تسير، ولكن ببطء. من يقدر ويريد أن يضيف شراعا جديدا إلى شراع سفينتى؟ ليت شعري من يقدر ويريد؟ أما كتاب "نحو الله" فما برح في المعمل السديمي وأفضل رسومه لم تزل خطوطا في الهواء وعلى وجه القمر. وأما "المستوحد" فقد ظهر منذ ثلاثة أسابيع باسم" السابق" (كتابه الإنجليزي الثاني فيه يظهر المنحي الجديد الذي بدأه في المجنون وتظهر نزعته الصوفية العميقة نشره عام 1920)، وقد بعثت إليك بنسخة منه. وفي البريد نفسه بعثت إليك بنسخة من "العواصف" (مجموعة باللغة العربية من المقالات والقصص القصيرة والقصائد النثرية كانت قد نشرت في الصحف والمجلات ما بين 1912 و1918)، وبنسخة ثالثة من حصرم كرمي "دمعة وابتسامة" ولم أرسل إليك القائمة التي يصدرها في الصيف ناشر كتبي، لأنني في الصيف كنت في البرية البعيدة وهناك سبب آخر!! وأما الرسوم والخزف والزجاج والكتب اللقديمة والآلات الموسيقية والتماثيل المصرية واليونانية والغوطية فهي كما تعهدينها مظاهر للروح الأزلية الأبدية كلمات منثورة من كتاب الله. وكم جلست أمامها مفكرا بالشوق الذي أوجدها، كم حدقت بها حتى غابت عن نظري وحل مكانها أشباح الأزمنة التي نقلتها من عالم الغيب إلى عالم المرئيات. لم أحصل بعد على التمثال الكلداني من الحجر الأسود، ولكن في الربيع الغبر كتبت إلى صديق إنجليزي موجود في العراق مع الحملة البريطانية وقال: "إذا وجدت شيئا فهو لك".

قد أجبت على جميع سؤالاتك ولم أنس شيئا. وقد بلغت الحد من هذه الصفحة قبل أن أقول كلمة مما أردت قوله عندما ابتدأت في رأس الصفحة الأولى. لم ينعقد ضبابي قطرا يا مي وتلك السكينة تلك السكينة المجنحة المضطربة لم تتحول إلى ألفاظ، ولكن هلا ملأت يدك من هذا الضباب؟ هلا أغمضت عينيك وسمعت السكينة متكلمة؟

وهلا مررت ثانية بهذا الوادي حيث الوحشة تسير كالقطعان وترفرف كأسراب الطيور وتتراكض كالسواقي وتتعالى كأشجار السنديان؟ هلا مررت ثانية يا مى؟ والله يحفظك ويحرسك.

جبران

يا مي

بوسطن 11 يناير 1921

ها قد بلغنا قمة عالية فظهرت أمامنا سهول وغابات وأودية فلنجلس ساعة ولنتحدث قليلا. نحن لا نستطيع البقاء هنا طويلا، لأني أرى عن بعد قمة أعلى من هذه وعلينا أن نصل إليها قبل الغروب ولكننا لن نترك هذا المكان إلا وأنت فرحة ولن نخطو خطوة إلا وأنت مطمئنة.

قد قطعنا عقبة صعبة المسالك قطعناها بشيء من التلبك، وإني أعترف لك بأنني كنت ملحا لجوجا غير أن إلحاحي كان نتيجة مقررة لشيء أقوى مما ندعوه إرادة. وأعترف لك بأنني لم أكن حكيما في بعض الأمور ولكن أليس في الحياة مالا تبلغه أصابع الحكمة؟ أليس فينا ما تتحجر الحكمة أمامه؟ ولو كانت اختباراتي يا مي تماثل بوجه من الوجوه ما اختبرته في ماضي لما أعلنتها ولكنها جاءت جديدة غريبة وعلى حين غفلة. ولو كنت إذ ذاك في القاهرة وأظهرتها لك شفاها وبصورة بسيطة مجردة خالية مما في الشخصيات من المرامي الذاتية لما حدث بيننا تفاهم، ولكن لم أكن إذ ذاك في القاهرة ولم يكن لدي من وسيلة إلا المراسلة والمراسلة في هذه "المواضيع" تلبس أبسط الأمور ثوبا من المركبات وتسدل على وجه المجردات نقابا كثيفا من الكلقة. فكم مرة

نريد أن نبدي فكرة بسيطة فنضعها فيما يتيسر لنا من الألفاظ تلك الألفاظ التي تعودت أقلامنا سكبها على الورق فينتج عن كل ذلك "قصيدة منثورة" أو "مقالة خيالية". أما السبب فهو أننا نشعر ونفكر بلغة أصدق وأصح من اللغة التي نكتب بها. نحن بالطبع نحب القصائد المنثورة والمنظومة ونحب المقالات الخيالية وغير الخيالية بيد أن العاطفة الحية الحرة شيء والبيان في المراسل شيء آخر.

مذ كنت صبيا في المدرسة وأنا أبتعد بقدر استطاعتي عن التعابير القديمة المتداولة، لأنني كنت ولم أزل أشعر بأنها تخف الفكر والعاطفة أكثر مما تظهرهما ولكن يبدو لي الآن أنني لم أتملص مما أتبرم منه يبدو لي أنني كنت منذ سنة ونصف السنة حيث كنت وأنا في الخامسة عشرة ودليلنا على ذلك ما أثمرته رسائلي من سوء التفاهم.

أقول ثانية إنني لوكنت في القاهرة لوفقنا أمام اختباراتنا النفسية وقوفنا أمام البحر أو أمام النجوم أو أمام شجرة تفاح مزهرة. ومع كل ما في اختباراتنا من الغرابة فهي ليست بأغرب من البحر أو من النجوم أو من الشجرة المزهرة، ولكن من العجائب أننا نمتثل إلى معجزات الأرض والفضاء وفي الوقت نفسه نستصعب تصديق ما يظهر في أرواحنا من المعجزات.

كنت أعتقد يا مى– وما برحت أعتقد – أن بعض الاختبارات لا تحدث إلا إذا اشترك بها اثنان في وقت واحد. وربما كان هذا الاعتقاد سببا أوليا لتلك الرسائل التي جعلتك أن تقولي لنفسك "يجب أن نقف هنا" الحمد لله لأننا لم "نقف هناك". الحياة يامي لا تقف في مكان من الأمكنة وهذا الموكب الهائل بجماله لا يستطيع سوى المسير من لا نهاية إلى لا نهاية. ونحن الذين نقدس الحياة ونميل بكل قوانا إلى الصالح والميارك والعذب والنبيل في الحياة، نحن الذين نجوع ونعطش إلى الثابت الباقي في الحياة لا نريد

أن نقول أو نفعل ما يوعز الخوف أو ما "يملأ الروح شوكا وعلقما". نحن لا نريد ولا نقدر أن نلمس جوانب المذبح إلا بأصابع طهرت بالنار. ونحن إذا أحببنا شيئا يا مي نحسب المحبة نفسها محجة لا واسطة للحصول على شيء آخر وإذا خضعنا خاشعين أمام شيء علوي نحسب الخضوع رفعة والخشوع ثوابا وإذا تشوقنا إلى شيء نحسب الشوق بحد ذاته موهبة ونعمة. ونحن نعلم أن أبعد الأمور هو أخلقها وأحقها بميلنا وحنيننا – ونحن أنت وأنا– لا نستطيع حقيقة أن نقف في نور الشمس قائلين: "يجب أن نوفر على نفوسنا عذابا نحن بغني عنه "لا يامي نحن لسنا بغنى عما يضع في النفس خميرة قدسية ولسنا بغنى عن القافلة التي تسير بنا إلى مدينة الله ولينا بغنى عما يقربنا من ذاتنا الكبرى، ويرينا بعض ما في أرواحنا من القوى والأسرار والعجائب. وفوق كل ذلك فنحن نستطيع أن نجد السعادة الفكرية في أصغر مظهر من مظاهر الروح، ففي الزهرة الواحدة نشاهد كل ما في الربيع من الجمال والبهاء، وفي عيني الطفل الرضيع نجد كل ما في البشرية من الآمال والأمانى. لذلك لانريد أن نتخذ أقرب الأشياء وسيلة أو مقدمة للوصول إلى أبعدها، كما أننا لا نريد ولا نقدر أن نقف أمام الحياة ونقول مشترطين: "أعطينا ما نريد أو لا تعطينا شيئا إما ذاك وإما لا شيء" لا يا مي نحن لا نفعل ذلك، لأننا نعلم أن الصالح والمبارك والثابت في الحياة لا يسير كما نشاء بل يسيرنا كما يشاء. وأي مطمع لنا وسبعة آلاف ميل تفصلنا في إعلان سر من أسرار أرواحنا سوى التمتع بإعلان ذلك السر؟ وما هي غايتنا من الوقوف بباب الهيك سوى مجد الوقوف؟ ماذا يا ترى يبغي الطائر إذا ترنم والبخور إذا احترق؟ أوليس في هذه النفوس المستوحدة سوى المنازع المحدودة؟

ما أعذب تمنياتك لي في يوم مولدي وما أطيب أريجها. ولكن اسمعي يا مي هذه الحكاية الصغيرة واضحكي قليلا على حسابي! شاء نسيب عريضة أن يجمع "دمعة

وابتسامة" في كتاب وذلك قبل زمن الحرب وشاء أن يحشر مقالة "يوم مولدي" بين تلك القطع الضئيلة، ورأى أن يضع التاريخ مع العنوان ولم أكن حينئذ في نيويورك فأخذ يبحث، وهو بحاثة لا يكل ولا يمل حتى وجد تاريخ ذلك اليوم باللغة الإنجليزية فترجم "JANYATY 6th" إلى "ديسمبر"! وهكذا خصم من سني في حياتي سنة وأخر يوم مولدي الحقيقي شهرا! ومنذ ظهور كتاب دمعة وابتسامة حتى اليوم وأنا أتمتع في كل سنة بيومي مولدي الأول أوجدته غلطة في الترجمة، أما الثاني فلا أدري أي غلطة في الأثير أوجدته! وتلك الصنة التي سرقت مني يعلم الله وأنت تعلمين، أنني اشتريتها غالية، اشتريتها بنبضات قلبي اشتريته بسبعين زونة من الألم الصامت والحنين إلى ما لا أعرفه، فكيف أسمح لغلطة في كتاب أن تسلبني إياها؟

أنا بعيد عن "الوادى" يا مي. جئت هذه المدينة "بوسطن" منذ عشرة أيام لعمل تصويري ولولم يبعثوا إلى "ببؤجة" من الرسائل الواردة إلى عنواني في نيويورك لعشت عشرة أيام أخرى بدون رسائلك هذه الرسالة التي حلت ألف عقدة في حبل روحي وحولت الانتظار وهو صحراء إلى حدائق وبساتين. الانتظار حوافر الزمن يا مي وأنا دائما في حالة الانتظار. يخال لي في بعض الأحايين أنني أصرف حياتي مترقبا حدوث مالم يحدث بعد، وما أشبهني بأؤلئك العمي والمقعدين الذين كانوا يضطجعون قرب بركة "بيت حسدا" "في أورشليم"، لأن ملاكا كان ينزل أحيان في البركة ويحرك الماء فمن نزل أولا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه". (بيت حسدا: إشارة إلى اليعازر وقيامته من الموت في إنجيل متى).

أما اليوم وقد حرك ملاكي بركتي ووجدت من يلقيني في الماء فإني أسير في ذلك المكان المعيب المسحور وفي عيني نور وفي قدمي عزم. أسير بجانب خيال أجمل وأطهر

لبصيرتي من حقيقة الناس كافة، أسير وفي يدي يد حريرية الملامس لكنه قوية وذات إرادة خاصة ولينة الأصابع، لكنها تستطيع رفع الأثقال وتكسير القيود. وبين الآونة والأخرى ألتفت فأرى عينين مشعشعتين وشفتين تداعبهما ابتسامة جارحة بحلاوتها.

قلت لك مرة إن حياتي مقسومة إلى حياتين وإنني أصرف الواحدة منهما بين العمل والناس والثانية في الضباب. قد كان ذلك بالأمس أما اليوم فقد توحدت حيات وصرت أشتغل في الضباب وأجتمع بالناس في الضباب وأنام وأحلم ثم أستيقظ وأنا في الضباب. هي نشوة محاطة بحفيف الأجنحة فالوحدة ليست بالوحدة وألم الحنين إلى غير المعروف أطيب من كل شيء عرفته. هي غيبوبة ربانية يا مي هي غيبوبة ربانية تدني البعيد وتبين الخفي وتغمر كل شيء بالنور. أنا أعلم الآن أن الحياة بدون هذا الانجذاب النفسي ليست سوى قشور بغير لباب. وأحقق أن كل ما نقول ونفعله ونفكر به لا يساوي دقيقة واحدة نصرفها في ضبابنا.

وأنت تريدين كلمة "نشيد غنائى" أن تحفر ف قلبى! تريدينها أن تنتقم لك من هذا الكيان الخافت الذي يحملني وأحمله لندعها تحفر وتحفر، بل لننادي جميع الأناشيد الغنائية الهاجعة في الأثير ولنأمرها أن تنتشر في هذه البلاد الواسعة لتحفر الترعات وتمد السبل وتبني القصور والأبراج والهياكل وتحول الوعر إلى حدائق وكروم، لأن شعبا من الجبابرة الفاتحين وفي الوقت نفسه أنت ابنة صغيرة في السابعة تضحك في نور الشمس وتركض وراء الفراشة وتجني الأزهار وتقمز فوق السواقى.

وليس في الحياة شيء ألذ وأطيب لدي من الركض خلف هذه الصغيرة الحلوة والقبض عليها ثم حملها على منكبي ثم الرجوع بها إلى البيت لأقص عليها الحكايات العجيبة الغريبة حتى تكتحل أجفانها بالنعاس وتنام نوما هادئا سماويا.

جبران

يا مي يا صديقتي

نيويورك مساء السبت 21 مايو 1921

"كثير وبحنو كثير وبحنو" هذه حقيقة بيسطة ظهرت لي منذ حين، فانفتحت في روحي نوافذ وأبواب جديدة ولما قررتها رأيتني واقفا أمام مشاهد ما كنت أحلم بوجودها في هذا العالم.

"كثير وبحنو كثير وبحنو"، ومن هذا الكثير وهذا الحنو قد تعلمت الصلاة بفرح والحنين بطمأنينة والامتثال بدون انكسار. لقد عرفت أن الرجل المستوحد يستطيع أن يغمر وحدته بنور "الكثير" ويزيل الأجهاد في عمله بحلاوة "الحنو". وعرفت أن الغريب المستوحش يستطيع أن يكون أبا وأخا ورفيقا وصديقا، وفوق كل ذلك أن يكون طفلا فرحا بالحياة. "كثيرا وبحنو" إن في هذا الكثير وهذا الحنو أجنحة تخيم وأياد تبارك. صحني اليوم أحسن مما كنت عليه منذ شهر لكنني لم أزل مريضا، وهذا الجسم الضعيف ما برح بدون نظام وبدون وزن وبدون قافية وأنت تريدين أن أقول لك مم أشكو فإليك خلاصة ما قاله الأطباء: "اضطراب عصبي سببه الاجهاد ونقص في التغذية أدى إلى

اضطراب في الجهاز العام للقلب فكان تسرع النبض نتيجة حتمية له وقد بلغت نبضاته 115 نبضة في الدقيقة في حين أن النبض الطبيعي هو في حدود (80).

يامي ففي العامين الغابرين قد حملت جسمي فوق طاقته فكنت أصور ما دام النور وأكتب حتى الصباح، وألقي المحاضرات وأختلط بجميع أنواع البشر وهذا العمل الأخير هو أصعب شيء أمام وجه الشمس.. وكنت إذا جلست إلى مائدة الطعام أشغل نفسي بالكلام والمتكلين حتى تحضر القهوة، فأتناول منها الشيء الكثير وأكتفي بها طعاما وشرابا. وكم مرة عدت إلى منزلي بعد منتصف الليل وبدلا من الخضوع إلى سنة الله في أجسامنا كنت أنبه ذاتي بالحمامات الباردة وبالقهة القوية وأصرف ما بقي من الليل كاتبا أو مصورا أو على الصليب. ولو كنت شبيها بقومي سكان شمال لبنان لما قبضت على العلة بهذه السرعة. هم كبار الأجسام أقوياء البنية أما أنا فبعكس ذلك ولم أرث عن أولئك الأشداء حسنة واحدة من حسناتهم الجسدية. ها قد أشغلت فسحة كبيرة بالكلام عن مرضي، وكان الأحرى بي ألا أفعل ولكن ما العمل وأنا لا أستطيع إلا الجواب على كل سؤال من سؤالاتك الممنطقة بحلاوة الاهتمام "والرغبة والتمني؟"!

أين الرسالة الطويلة المقطعة المكتوبة بقلم رصاص على ورق بلدي مربع التسطير في حديقة جميلة أمام صف من الذهبيات؟ أين رسالتي يا مى؟ لماذا لم تبعثي بها إلى؟ أريد الحصول عليها أريدها بكلياتها وجزيئاتها. أتعلمين مقدار رغبتي في الحصول على تلك الرسالة بعد أن قرأت نتفة منها.. تلك انتفة القدسية التي جاءت فجرا ليوم جديد.. أتعلمين أنه لولا خوفي من كلمة "وبجنون" لكنت بعثب إليك ليلة أمس برقية أرجوك فيها تسليم الرسالة إلى البريد؟

أترين في الطيبة يا مى؟ وهل أن بحاجة إلى الطيبة؟ هذا كلام جارح بعذوبته فبما أجيب عنه؟ إذا كان في كياني يا صديقتي ما أنت في حاجة إليه فهو لك بكليته. ليست الطيبة فضيلة بحد ذاتها أما عكسها فجهالة.. وهل تقطن الجهالة حيث "كثيرا وبحنو"؟.

إذا كانت الطيبة في محنة الجميل وفي التهيب أمام النبيل وفي الشوق إلى البعيد والخفى.. إذا كانت الطيبة في هذه الأشياء فأنا إذن من الطيبين أما إذا كانت في غير هذه الأشياء فأنا لاأدري ما ومن أنا. وإني أشعر يامي أن المرأة السامية تستلزم وجود الطيبة في روح الرجل حتى ولو كان جاهلا.

حبذا لو كنت الساعة في مصر. حبذا لوكنت في بلادي قريبة ممن تحبهم نفسى. أتعلمين يامي أنني في كل يوم أتخيل ذاتي في منزل في ضواحي مدينة شرقية، وأرى صديقتي جالسة قبالتي تقرأ في آخر مقالة من مقالاته التي لم تنشر بعد فتتحدث طويلا في موضوعها ثم نتفق على أنها أحسن ما كتبته حتى الآن. وبعد ذلك أنتشل من بين مساند فراشي بعض الأوراق وأقرأ قطعة كتبتها أثناء اللية الغابر فتستحسنها صديقتي قليلا ثم تقول في سرها "يجب ألا يكتب وهو في هذه الحالة. إن تراكيب هذه القطعة تدل على الضعف والوهن والتشويش.. عليه ألا يأتي بعمل فكري حتى يتعافى تماما".. تقول صديقتي هذا في سرها وأنا أسمعه في سري فأقتنع بعض الاقتناع ثم لا ألبث أن أقول بصوت عال "أمهلين قليلا أمهليني أسبوعا أو أسبوعين فأتلو عليك قطعة جميلة جميلة للغاية". فتجيبني بصراحة "يجب أن تمتنع عن الكتابة والتصور وكل عمل آخر عاما أو عامين، وإن لم تمتنع فأنا عليك من الساخطين!" تلفظ صديقتي كلمة

"الساخطين" بلهجة ملؤها "الاستبداد المطلق" ثم تبتسم كالملائك فأحتار دقيقة بين سخطها وابتسامها ثم أجدني فرحا بسخطها وابتسامها، وفرحا بحيرتى.

وعلى ذكر الكتابة أتدركين مقدار سروري وابتهاجي وافتخاري بما ظهر لك من المقالات والحكايات في الشهور الأخيرة؟ ما قرأت لك قطعة إلا وشعرت بنمو وتمدد في قلبي وما قرأتها ثانية إلا وتحولت عمومياتها إلى شيء شخصي فأرى في الأفكار والقوالب ما لم يره سواي وأقرأ بين السطور سطورا لم تكتب إلإ لى. أنت يامي كنز من كنزر الحياة بل أكثر من ذلك – أنت أنت، وإني أحمد الله لأنك من أمة أنا من أبنائها ولأنك عائشة في زمن أعيش فيه. كلما تخيلتك عائشة في القرن الماضي أو في القرن الآتي رفعت يدي وخفقت بها الهواء كن يريد أن يزيل غيمة من الدخان من أمام وجهه.

بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أذهب إلى البرية فأسكن بيتا صغير منتصبا كالحلم بين البحر والغابة وما أجمل تلك الغابة وما أكثر أطيارها وأزهارها وينابيعها. كنت في الأعوام الغبرة أسير وحيدا منفردا في تلك الغابة. وكنت أذهب عشية إلى البحر وأجلس كئيبا على الصخور أو أرمي بنفسي إلى الأمواج كي يريد أن يتملص من الأرض وأشباحها. أما في هذا الصيف فسأسير في الغابة وأجلس أمام البحر وفي روحي ما ينسيني الوحدة وفي قلبي ما يشغلني عن الكآبة.

أخبريني يا مي ما أنت فاعلة في هذا الصيف؟ أذاهبة إلى رمل الإسكندرية أم إلى لبنان أم إلى لبنان؟ أذاهبة وحدك إلى لبناننا؟ أي متى يا ترى أعود إلى لبنان؟ أتستطيعين أن تقولي لي متى أتخلص من هذه البلاد ومن القيود الذهبية التي حبكتها منازعي حول عنقى؟

أتذكرين يا مي قولك لي مرة أن صحفيا في بيونيس آيريس قد بعث إليك برسالة يطلب فيها رسمك ومقالة من مقالاتك؟ لقد فكرت مرات عديدة في طلب هذا الصحفي وفيما يطلبه الصحفيون، وكنت أقول في كل مرة أقول لست بصحفى! لست بصحفى! لذلك يتعذر على أن أطلب ما يطلبه الصحفيون. لوكنت صاحب مجلة أو محرر جريدة لطلبت رسمها بكل حرية، وبدون خجل، وبدون وجل وبدون توطئة منسوجة من الألفاظ المرتعشة؟.. كن ولم أزل أقول هذا في قلبي فهل سمع الذين اتخذوا قلبي وطنا لهم؟

ها قد انتصف الليل وللآن لم أخط الكلمة التي تلفظها شفتي وتلفظها تارة همسا وطورا بصوت عال. إني أضع كلمتي في قلب السكينة، فالسكينة تحتفظ علينا كل ما نقوله بحنو وحرقة وإيمان. والسكينة يا مي تحمل صلاتنا إلى حيث نريد أو ترفعها إلى الله.

أنا ذاهب إلى فراشى. وسوف أنام الليلة طويلا. وسوف أقول لك في الحلم ما لم أخطه على هذه الورقة.

مساء الخير يا مي الله يحرسك

جبران

يا مي يا ماري يا صديقتي

نيويورك صباح الاثنين 30 مايو 1921

(ماري هو اسم مي الأصلي إلا أنها اختارت الثاني مختصرة اسم ماري إلى مي وهو الاسم العربي الجميل الذي تغنى به الشعراء. وقد غلب عليه واشتهرت به وأصبح اسمها الأدبي والشخصي)، استيقظت الساعة من حلم غريب.

ولقد سمعتك تقولين لي في الحلم كلمات حلوة ولكن بلهجة موجعة، والأمر الذي يزجني في هذا الحلم ويزعجني جدا هو أنني رأيت في جبهتك جرحا صغيرا يقطر دما. ليس في حياتنا شيء أدعى إلى التفكير والتأمل من الأحلام. وأنا من الذين يحلمون كثيرا بيد أنني أنسى أحلامي إلا إذا كانت ذات علاقة بمن أحبهم. لا أذكر أنني حلمت في ماضي حلما أوضح من هذا الحلم، لذلك أراني مشوشا مضطربا مشغول البال في هذا الصباح. ماذا تعني رنة التوجع في كلماتك الجميلة؟ وما معنى الجرح في جبهتك؟ وأي بشري يستطيع أن يخبرني مفاد انقباضي وكآبتي؟

سوف أصرف نهاري مصليا في قلبي. أصلي لأجلك في سكينة قلبي. وسوف أصلي لأجلنا.

والله يبارك يا مي ويحرسك.

جبران

صديقتي الفاضلة

نيويورك 9 مايو 1922

تسألينني يا سيدتي ما إذا كنت وحيد الفكر والقلب والروح فبما يا ترى أجيبك؟ أشعر أن وحدتي ليست بأشد ولا أعمق من وحدة غيري من الناس. كلنا وحيد منفرد. كلنا سر خفي. كلنا محجوب بألف نقاب ونقاب، وما الفرق بين متوحد ومستوحد سوى أن الأول يتكلم عن وحدته والثاني يظل صامتا.

وقد يكون في الكلام بعض الراحة، وقد يكون في الصمت بعض الفضيلة. لا أدري يا سيدتي ما إذا كانت وحدتي بما فيها من الكآبة مظهرا "لهوي بعض شخصياتي"، أو برهانا على عدم وجود شخصية في هذا الكائن الذي أدعوه "أنا" لا لا أدري، ولكن إذا كانت الوحدة عنوان الضعف فأنا بدون شك أضعف الناس.

أما مقالة "نفسي مثقلة بثمرها" فلم تكن "أنه شاعر في ساعة غم عابرة" بل "صدى لعاطفة عمومية قديمة مستتبة شعر ويشهر بها الكثيرون"، وسيدتي تعلم أن ميلنا إلى سكب ما في أرواحنا في كؤوس الآخرين لأشد بما لا يقاس من الرغبة في الارتواء مما

يسكبه الآخرون في كؤوسنا. تلك الصفة لا تخلو من الغرور في بعض الأحايين لكنها طبيعية.

ما أحسن قولك "إن كربة الوحدة وتباريحها تشتد وسط الجماهير". هذه حقيقة أولية. فكم مرة يجلس الواحد منا بين أترابه ومريديه فيحدثهم ويجادلهم ويشاركهم بالأقوال والأعمال، يفعل كل ذلك بإخلاص ومسرة ولكن فعله لا يتعدى حدود الذات المقتبسة من عالم المظهر أما ذاته الأخرى، ذاته الخفية فتبقى ساكنة مستوحدة في عالم المصدر.

الناس– وأنا منهم، ميالون إلى الدخان والرماد أما النار فيخافونها لنها تبهر العين وتحرق الأصابع. الناس، وأنا منهم، منصرفون إلى درس ثنايا قشور بعضهم بعضا أما اللباب فيتركونه وشأنه لأنه لا يقع تحت حواسهم. وكيف يستطيع اللباب أن يظهر إلا بكسر القشرة؟ وليس من الأمور الهينة أن يمزق المرء قلبه ليرى الناس مكنونات قلبه. وهذه هي الوحدة يا سيدتي، وهذه هي الكآبة.

قد أسأت التعبير– وبشيء من القصد– عندما قلت لك في أواخر الصيف الغابر "منذ ستة أسابيع وأنا أحاول الكتابة إليك" كان يجب أن أقول "من ستة أسابيع وأنا أستأجر بعض الناس للاهتمام برسائلي، لأن أعصاب يميني لم تكن صالحة للكتابة"، ولم أحلم قط بأن لفظة "أحاول" ستتحول إلى مبضع في يد صديقتى. كنت أتوهم أن الأرواح المجنحة لا تسجن في قفص من الألفاظ. وكنت أتوهم أن الضباب لا يتحجر وكنت أتوهم وأجد الراحة والطمأنينة في أوهامى، حتى إذا ما طلع الفجر، واستيقظت وجدتني جالسا على رابية من رماد وفي يدي قصبة مرضوضة، وعلى رأسي إكليل من الشوك..لا بأس فأنا المخطئ أنا أنا المخطئ يا "مى".

أرجو أن تحقق الأيام رغبتك في السفر إلى أوروبا. سوف تجدين خصوصا في إيطاليا وفرنسا، من مظاهر الفن والصناعة مايسرك ويبهجك. هناك المتاحف والمعاهد وهناك الكنائس القديمة الغوطية، وهناك آثار نهضة القرنين الرابع عشر والخامس عشر وهنا أفضل ما تركته الأمم المغلوبة والأمم المنسية. أوروبا ياسيدتي مغارة لص غاوي خبير يعرف قيمة الأشياء النفيسة ويعرف كيف يحصل عليها.

كان بقصدي الرجوع إلى الشرق في الخريف الآتي، ولكن بعد قليل من التفكير وجدت أن الغربة بين الغرباء أهون من الغربة بين أبناء وبنات أمي. وأنا لست ممن يميلون إلى الهين ولكن القنوط فنون كالجنون.

تفضلي بقبول تحيتي مشفوعة بأحسن تمنياتي والله يحفظك.

المخلص

جبران خليل جبران

عزيزتي مي

نيويورك 5 أكتوبر 1923

لا يامي ليس التوتر في اجتماعنا الضبابية بل في اجتماعاتنا الكلامية. ما لقيتك في ذلك الحق البعيد الهادئ إلا وجدتك الصبية العذبة العطوفة التي تشعر بكل الأشياء وتعرف كل الأشياء وتنظر إلى الحياة بنور الله وتغمر الحياة بنور روحها. لكن ما اجتمعنا بين سواد الحبر وبياض الورق إلا رأيتك ورأيتني أرغب الناس في الخصام والمبارزة المبارزة.. العقلية المفعمة بالقياسات المحدودة والنتائج المحدودة.

الله يسامحك. لقد سلبتني راحة قلبي، ولولا تصلبي وعنادي لسلبتني إيماني. من الغريب أن يكون أحب الناس إلينا أقدرهم على تشويش حياتنا.

يجب ألا نتعاتب يجب أن نتفاهم. ولا نستطيع التفاهم إلا إذا تحدثنا ببساطة الأطفال. أنت وأنا نميل إلى الإنشاء بما يلازم الإنشاء من المهارة والتفنن والتنميق والترتيب. قد عرفنا – أنت وأنا – أن الصداقة والإنشاء لا يتفقان بسهولة. القلب يا مي شيء بسيط ومظاهر القلب عناصر بسيطة أما الإنشاء فمن المركبات الاجتماعية.

ما قولك في أنت نتحول عن الإنشاء إلى الكلام البسيط؟.. "أنت تحيين في وأنا أحيا فيك أنت تعلمين ذلك وأنا أعلم ذلك".

أليست هذه الكلمات القليلة أفضل بما لا يقاس من كل ماقلناه في الماضى؟ ماذا ياترى كان يمنعنا عن التلفظ بهذه الكلمات في العام الغابر؟ أهو الخجل أم الكبرياء أم الاصطراحات الاجتماعية أم ماذا؟ منذ البدء عرفنا هذه الحقيقة الأولية فلماذا لم نظهرها بصارحة المؤمنين المخلصين المتجردين؟ لو فعلنا لكنا أنقذنا نفسينا من الشك والألم والندم والسخط والمعاكسات المعاكسات التي تحول عسل القلب إلى مرارة وخبز القلب إلى تراب. الله يسامحك ويسامحنى.

يجب أن نتفاهم ولكن كيف نستطيع ذلك بدون أن يقابل الواحد منا صراحة الآخر بالتصديق التام؟ أقول لك ياماري، أقول لك أمام السماء والأرض ومابينهما أنني لست ممن يكتبون "القصائد الغنائية"، ويبعثون به إلى الشرق وإلى الغرب كرسائل خصوصية ولست ممن يتكلمون صباحا عن نفوسهم المثقلة بالأثمار وينسون مساء نفوسهم وأثمارها وأثقالها، ولست ممن يلمسون الأشياء المقدسة قبل أن يغسلوا أصابعهم بالنار ولست ممن يجدون في أيامهم ولياليهم الفسحات الفارغة فيشغلونها بالمداعبات الغزلية ولست ممن يستصغرون أسرار أرواحهم وخفايا قلوبهم فينشرونها أمام أية ريح تهب، أنا كثير الأشغال مثل بعض الرجال الكثيري الأشغال، أنا أتوق إلى العظيم والنبيل والجميل مثل بعض الرجال الذين يتوقون إلى العظيم والنبيل والجميل والنقي، وأنا غريب مستوحد مستوحش مثل بعض الرجال المستوحدين المستوحشين رغم سبعين ألف صديقة وصديق. وأنا مثل بعض الرجال لا أميل إلى البهلوانيات الجنسية المعروفة عند

الناس بأسماء حسنة ونعوت أحسن، وأنا يا مي مثل جارك وجارى، أحب الله والحياة والناس، ولحد الآن لم تطلب مني الأيام أن ألعب دورا لا يليق بجارك أو بجارى.

لما كتبت إليك في البداية كانت رسائي دليلا على ثقتي بك، لما جاوبتني كان جوابك دليلا على الشك. كتبت إليك مضطرا فأجبتني متحذرة. حدثتك عن حقيقة غريبة فأجبتني بكل لطف قائلة: "عافاك يا شاطر ما أحسن قصائدك الغنائية" أنا أعلم جيدا أنني لم أتبع إذ ذاك السبل المألوفة. وأنا لم أتبع ولن أتبع السبل المألوفة. وأنا أعلم أن تحذك كان من الأمور المنتظرة وهذا هو سبب ألمي لأنني لم أنتظر المنتظر. لو كتبت لغير مي لكان علي أن أنتظر المنتظر. ولكن هل كان بإمكاني إظهار تلك الحقيقة لغير مى؟

الغربي أنني لم أندم بعد ذلك. لا لم أندم بل بيت متمسكا بحقيقتي راغبا في إظهارها لك، فكتبت إليك مرات عديدة وكنت أحصل بعد كل مرة على الجواب اللطيف، ولكن من غير مي التي أعرفها. كنت أحصل على الجواب اللطيف من كاتمة أسرار مي وهي صبية ذكية تعيش في القاهرة بمصر. ثم ناديت وناجيت، وكنت أحصل على الجواب نعم كنت أحصل على الجواب، ولكن ليس من تلك التي "أحيا فيها وتحيا في"، بل من امرأة متحذرة متشائمة تأخذ وتعطي معي كأنها المدعي العمومي وكأنني المدعي عليه.

وهل أن ناقم عليك؟

كلا لكنني ناقم على كاتمة أسرارك.

وهل حكمت عليك حكما عادلا أم غير عادل؟

كلا لم أحكم أبدا. إن قلبي لا ولن يسمح بإيقافك أمام منصة القضاء قلبي لا ولن يسمح لي بالجلوس عليها. إن ما بيننا يا مي يقصينا عن جميع المحاكم. ولكن لي رأي في كاتمة أسرارك وهو هذا. كلما جلسنا لنتحدث تدخل علينا حضرتها، وتجلس قبالتنا كمن يستعد لتدوين وقائع جلسة من جلسات مؤتمر سياسى. أسألك، أسألك يا صديقتي هل نحن بحاجة إلى كاتمة الأسرار؟ هذا سؤال مهم. إذا كنت حقيقة بحاجة إلى كاتمة أسرارك فعلي إذا أن استدعي كاتم أسراري لأنني أنا أيضا أريد تسيير أشغالي على الطراز الأول! أتريدين كاتم أسراري أن يكون معنا؟

انظري يامى: ههنا طفلان جبلاويان يمشيان في نور الشمس وهناك أربعة أشخاص: امرأة وكاتمة أسرارها ورجل وكاتم أسراره. هنا طفلان يسيران يدا بيد يسيران بإرادة الله إلى حيث يريد الله، وهناك أربعة أشخاص في مكتب يتجادلون ويتحاجون ويقومون ويقعدون وكل منهم يحاول إثبات ما يظنه حقا له على حساب ما يظنه بطلا في الآخر. ههنا طفلان، وهناك أربعة أشخاص فإلى أية جهة يميل قلبك؟ قولي لي إلى أي جهة؟

آه لوكنت تعلمين مقدار تعبي مما لا لزوم له. لو كنت تعلمين مقدار حاجتي إلى البساطة. لو كنت تعلمين مقدار تعبي مما لا لزوم له. لو كنت تعلمين مقدار حاجتي إلى البساطة. لو كنت تعلمين مقدار حنيني إلى المجرد، المجرد الأبيض، المجرد في العاصفة المجرد على الصليل، المجرد الذي يبكي لا يستر دموعه المجرد الذي يضحك ولا يخجل من ضحكة، لو تعلمين لو كنت تعلمين.

"وماذا أنا فاعل في هذا المساء"؟

ليس الوقت مساء. نحن في الساعة الثانية بعد متصف الليل فإلى أي مكان تريدين أن نذهب في هذه الساعة المتأخرة؟ الأفضل أن نبقي هنا، في هذه السكينة العذبة، هنا نستطيع أن نتشوق حتى يدنينا الشوق من قلب الله. وهنا نتستطيع أن نحب البشرية حتى تفتح لنا البشرية قلبها. ها قد قبل النعاس عينيك.

لاتكرري أن النعاس قد قبل عينيك. لقد رأيته يقبلهما. قد رأيته يقبلهما هكذا، هكذا كما يقبلون فألقي رأسك هنا، إلى هذه الجهة ونامي، نامي صغيرتى، نامي فأنت في وطنك.

أما أنا فسوف أسهر سوف أسهر وحدي. علّي أن أبقى خافر حتى الصباح. قد ولدت لأبقى خافرا حتى الصباح.

الله يحرسك. الله يبارك سهري. الله يحرسك دائما.

جبران

ما أعذب رسالتك في قلبي
ما أحلاها في قلبي يا مي

نيويورك بين 1و3 ديسمبر 1923

ذهبت إلى البرية منذ خمسة أيام ولقد صرفت الأيام الخمسة مودعا الخريف الذي أحبه، ورجعت إلى هذا الوادي من ساعتين رجعت مثلجا مجلدا ذلك، لأنني قطعت مسافة أطول من تلك المسافة الكائنة بين الناصرة وبشري في سيارة مكشوفة..

ولكن.. ولكن رجعت فوجدت رسالتك وجدتها فوق رابية من الرسائل وأنت تعلمين أن جميع الرسائل تضمحل من أمام عيني عندما أتناول رسالة من محبوبتي الصغيرة فجلست وقرأتها مستدفئا بها. ثم أبدلت أثوابي. ثم قرأتها ثانية ثم ثالثة ثم قرأته ولم أقرأ شيئا سواها. وأنا يا مريم لا أمزج الشراب القدسي بعصير آخر.

أنت معي في هذه الساعة. أنت معي يامي أنت هنا، وأنا أحدثك ولكن بأكثر من هذه الكلمات، أحدث قلبك الكبير بلغة أكبر من هذه اللغة وأنا أعلم أنك تسمعين، أعلم أننا نتفاهم بجلاء ووضوح وأعلم أننا أقرب من عرش الله في هذه الليلة منا

في أي وقت من ماضينا. أحمد الله وأشكره. أحمد الله وأشكره فقد رجع الغريب إلى وطنه وعاد المسافر إلى بيت أمه وأبيه.

في هذه الدقيقة مرت بخاطري فكرة جليلة جدا. فاسمعي يا صغيرتي الحلوة: إذا تخاصمنا في المستقبل (هذا إذا كان لابد من الخصام) يجب ألا نفترق مثلما كنا نفعل في الماضي بعد كل معركة. يجب أن نبقى، برغم الخصام، تحت سقف بيت واحد حتى نمل الخصام فنضحك أو يملنا الخصام فيذهب هازا رأسه. ما قولك في هذا الرأى؟

لنتخاصم ما شئنا وشاء الخصام، فأنت من إهدن وأنا من بشر، ويبدو لي أن المسافة إرثية! ولكن مهما جرى في أيامنا الآتية علينا أن نبقى ناظرين إلى وجهينا حتى تمر الغمامة. وإذا جاءت كاتمة أسرارك وجاء كاتم أسراري وهما دائما سبب خصامنا، يجب أن نخرجهما من بيتنا بكل لطف، ولكن بأسرع وسيلة.

أنت أقرب الناس إلى روحي أنت أقرب الناس إلى قلبي ونحن لم نتخاصم قط بروحينا أو بقلبنا. لم نتخاصم بغير الفكر والفكر شيء مكتسب شيء نقتبسه من المحيط من المرئيات من مآتي الأيام. أما الروح والقلب فقد كانا فينا جوهريين علويين قبل أن نفتكر.

وظيفة الفكر الترتيب، وهي وظيفة حسنة ولازمة لحياتنا الاجتماعية ولكن لا مكان لها في حياتنا الروحية القلبية. يستطيع الفكر "الجليل" أن يقول: "إذا تخاصمنا في المستقبل يجب ألا نفترق"، يستطيع الفكر أن يقول كلمة واحدة عن المحبة لا يستطيع أن يقيس الروح بمقاييس كلامه ولا يستطيع وزن القلب بموازين منطقه.

أحب صغيرتى، غير أنني لا أدري بعقلي لماذا أحبها، ولا أريد أن أدري بعقلي، يكفي أنني أحبها. يكفي أنني أحبها. يكفي أنني أحبها بروحي وقلبي يكفي أنني أسند رأسي إلى كتفها كئيبا غريبا مستوحدا فرحا مدهوشا مجذوبا، يكفي أن أسير إلى جانبها نحو قمة الجبل وأن أقول لها بين الآونة والأخرى "أنت رفيقتي أني رفيقتى".

يقولون لي يا مي إنني من حبي الناس، ويلومني بعضهم لأنني أحب جميع الناس نعم أحب جميع الناس، وأحبهم بدون انتخاب وبدون غربلة، وأحبهم كتلة واحدة أحبهم لأنهم من روح الله ولكن لكل قلب قبلة خاصة لكل قلب وجهة ذاتية يتحول إليها ساعات انفراده لكل قلب صومعة يختلي فيها ليجد راحته وتعزيته، لكل قلب قلب يشتاق إلى الاتصال به ليتمتع بما في الحياة من البرك والسلامة أو لينسي ما في الحياة من الألم.

شعرت منذ أعوام بأنني وجدت وجهة قلبي وكان شعوري حقيقة بسيطة واضحة جميلة. لذك تمردت على القديس توما عندما جاء مشككا مستفحصا. وسوف أتمرد على القديس توما وبنصر القديس توما حتى يتركنا في خلوتنا السماوية مستسلمين إلى إيماننا السماوى.

ها قد بلغنا ساعة متأخرة من الليل ولم نقل بعد سوى القليل القليل ممانريد أن نقوله. الأفضل أن نتحدث ساكتين حتى الصباح. وعند الصباح ستقف صغيرتي المحبوبة بجانبي أمام أعمالنا الكثيرة. وبعد ذلك بعد انقضاء النهار ومشاكله سنعود ونجلس أمام هذا لموقد ونتحدث. والآن قربي جبهتك كذا..

والله يباركك والله يحرسك.

جبران

صديقتي.. مي

مساء الأحد نيويورك
2ديسمبر الساعة العاشرة

لقد كان يومنا هذا مفعما بالأعمال. منذ الساعة التاسعة صباحا حتى هذه الساعة ونحن نودع قوما لنسلم على قوم آخرين. غير أنني كنت أنظر نحو رفيقتي بين الدقيقة والدقيقة وأقول لها:

أحمد الله وأشكره، أحمد الله وأشكره فقد تلاقينا ثانية في غابتنا وفي جيب كل منا رغيف من الخبز بدلا من كتاب أو لوح تصوير. أحمد الله وأشكره فقد عدنا لنرعى قطيعنا في الوادي الهادئ بعد أن كنا أستاذين في مدرسة! أحمد الله وأشكره لأن مريم الحلو تسمعني صامتا مثلم أسمعها صامتة، وتفهمني مشغوفا مثلما أفهمها عطوفة.

لقد حمدت الله وشكرت النهار وطوله لأن مي كانت طول النهار تتكلم بلساني وتأخذ بيدي وتعطي بيدي. وكنت طول النهار أنظر بعينيها فأرى اللطف في وجوه الناسن وأصغي بأذنيها فأسمع العذوبة في أصواتهم.

وأنت تسألين عن صحتي، وعندما تسألين عن صحتى تتحول بنيتي إلى أم كلها حنان. صحتي جيدة جدا. فقد ذهبت تلك العلة وتركتني قويا متحمسا رغم البياض

الذي تركته في شعر صدغي! الغريب أنني داويت نفسي بنفسي فكنت عمليا إجرائيا بعد أن تقرر لدي أن الأطباء خياليون هائمون في أودية الظنون والتخمين. لقد كانوا يهتمون بدرس النتائج ويحاولون إزالتها بالعقاقير أما الأسباب فلم يحفلوا بها، ولما كان "صاحب البيت أدرى بالذي فيه" ذهبت إلى البحر والغاب وصرفت بينمها ستة أشهر متوالية فزالت الأسباب والنتائج.

ما قولك في وضع كتاب في "الطب الحديث"؟ هل تشاركيني بتأليفه؟ أمامنا الآن مسألة مهمة علينا أن نبحث فيها: تذكرين طبعا أنك أظهرت لي منذ أسابيع "سرا" هائلا. وتذكرين أنك لم تظهري "السر" إلا بعد أن أقبل "شروطك"، والغريب أنني قبلتها قبل أن أعرفها. فما تلك الشروط؟ تفضلي يا ستي مريم وقولي لي ماشروطك فأنا مستعد لتنفيذها. لقد ترددت كثيرا في إماطة النقابت عن "السر" فأصبحت بدون شك مشتاقة لتنفيذها. لقد ترددت كثيرا في إماطة النقابة عن "السر" فأصبحت بدون شك مشتاقة إلى تمزيق النقاب عن الشروط. قولي ماذا تريدين؟ وما الضمانات أو التعويضات التي ترغبين فيها؟ إنما الشروط شروط، وعلى المغلوب قبولها وتنفيذها – يكفي العالم مشكلة الروهر. (نهر في ألمانيا يجتاز منطقة صناعية غنية بمناجم الفحم والمعادن معروفة باسمه وقد احتلتها فرنسا نتيجة لعدم تنفيذ معاهدة فرساى).

ولكن لا أخفي عنك أنني بعد تحقيق تلك الشروط سأنظر في أمر هذه النقرة، أو شبه النقرة، التي تضحك من ذقنى! أتظنين أنني أصبر على شيء منخفض في ذقني يضحك مما برز منها؟ كلا!

سوف أستر هذه النقرة الشيريرة التي لا تحترم محيطها "الموقر بجموده ونقمته"، سوف أدفنها في لحية كثيفة وطويلة، سوف أكفنها وطيلة، سوف أكفنها بما ابيض من

شعري ثم أضعها في تابوت مما بقي من سواده. نعم سوف أثأر لنفسي من هذه النقرة الوقحة التي تجهل أنها ملتصقة بمن إذا غضبت الكائنات، وإذا ابتسم ابتسمت معه!

سنعود عد إلى حديثنا، أما الآن فلنصعد إلى السطح ونقف أمام نجوم الليل هنيهة.. قولي لي يا صغيرتي المحبوبة، هل الليل أعمق وأروع من قلب الإنسان؟ وهل مواكب النجوم أهيب وأجمل مما يتمشي في قلب الإنسان؟ وهل في الليل أو بين النجوم أقدس من هذه الشعلة البيضاء المرتعشة في يد الله؟

جبران

عزيزتي..!

3 يناير عند منتصف الليل

بما أجيب عن كلماتك بشأن كتاب "النبي"؟ ماذا أقول لك؟ ليس هذا الكتاب سوى القليل من الكثير الذي رأيته وأراه في كل يوم في قلوب الناس الصامتة وفي أرواحهم المشتاقة إلى البيان. لم يقم في الأرض من استطاع أن يأتي بشيء من عنده كفرد واحد منفصل عن الناس كافة. وليس بيننا من يقدر على أكثر من تدوين ما يقوله الناس له على غير معرفة منهم.

إنما "النبي" يا مي أول حرف من كلمة.. توهمت في الماضي أن هذه الكلمة لي وفي ومني، لذلك لم أستطع تهجئة أول حرف من حروفها، وكان عدم استطاعتي سبب مرضي، بل وكان سبب ألم وحرقة في روحي. وبعد ذلك شاء الله وفتح عيني فرأيت النور، ثم شاء الله وفتح أذني فسمعت الناس يلفظون هذا الحرف الأول، شاء الله وفتح شفتي فرددت لفظ الحرف: رددته مبتهجا فرحا لأنني عرفت للمرة الأولى أن الناس هم هم كل شيء وأنني بذاتي المنفصلة لست شيئا. وأنت أعرف الناس بما كان في ذلك من

الحرية والراحة والطمأنينة، وأنت أعرف الناس بشعور من وجد نفسه فجأة خارج حبس ذاتيته المحدودة.

وأنت يا مى، أنت صغيرتي الكبيرة، تساعدينني الآن على الإصغاء إلى الحرف الثانى، وسوف تساعدينني على لفظه، وستكونين معي دائما.

قربي جبهتك يامريم، قربيها ففي قلبي زهرة بيضاء أريد أن أضعها على جبهتك. ما أعذب المحبة عندما تقف مرتعشة مخجولة أمام نفسها.

والله يباركك. الله يحرس صغيرتي المحبوبة، والله يملأ قلبها بأناشيد ملائكته.

جبران

عزيزتي.. الآنسة مي

نيويورك 31 ديسمبر 1923

تلقت مي مغلفا صدر بتاريخ 31 ديسمبر 1923 يتضمن بطاقة بريدية تحمل رسالة قصيرة بدأها في أسفل الصورة وأتمها على ظهرها هذا نصها:

كان هذا الوادي في الصيف الغابر يذكرني بأودية لبنان الشمالى. لا، لا أعرف عيشا أهنأ من عيش الأودية. وأحب الأودية يا ماري في الشتاء، ونحن أمام موقد، ورائحة السرو المحروق تملأ البيت، والسماء تنثر الثلوج خارجا، والريح تتلاعب بها، وقناديل الجليد مدلاة وراء زجاج النوافذ، وصوت النهر البعيد وصوت العاصفة البيضاء يتآلفان في مسامعنا.. ولكن إذا لم تكن صغيرتي المحبوبة قريبة مني فلا كان الوادي، ولا الثلج ولا رائحة عود السرو، ولا بلور قناديل الجليد ولا أنشودة النهر، ولا هيبة العاصفة.. بعدا "لها كلها" إذا كانت صغيرتي المباركة بعيدة عنها وعنى.

وأسعد الله مساء الوجه الحلو المحبوب

جبران

حاشية – كنت في الماضي أحصل على قصاصات الورق من "مكتب القصاصات". وقد قطعت اشتراكي بهذا المكتب في العام الغابر. كنت قد مللت الجرائد وأقواله، وفي الملل شيء من النعاس الروحى. فسامحينى، سوف أحاول الحصول على بعض القصاصات.

مي!

نيويورك 26 فبراير 1924

نحن اليوم رهن عاصفة ثلجية جليلة مهيبة، وأنت تعلمين يا ماري أنني أحب جميع العواصف خصوصا العواصف الثلجية. أحب الثلج، أحب بياضه وأحب هبوطه وأحب سكوته العميق. وأحب الثلج في الأودية البعيدة المجهولة حيث يتساقط مرفرفا ثم يتلألأ بنور الشمس ثم يذوب ويسير منشدا أغنيته المنخفضة.

أحب الثلج وأحب النار، وهما من مصدر واحد، ولكن لم يكن حبي لهما قط سوى شكل من الاستعداد لحب أقوى وأعلى وأوسع.

ما ألطف قول من قال:

يا مي عيدك اليوم وأنت عيد الزمان، وما أعظم الفرق بين هذا البيت العربي و"بيت" لشاعر أمريكي من قصيدة بعث بها إلى الآونة الأخيرة، قال:

Your Honour and reward *** That you shall be crucified

"في الصليب شرفك وثوابك".

لا بأس- على أنني أخشى بلوغ النهاية قبل الحصول على هذا الشرف وهذا الثواب.

لنعد هنيهة إلى "عيدك" أريد أن أعرف في أي يوم من أيام السنة قد ولدت صغيرتي المحبوبة. أريد أن أعرف لأنني أميل إلى الأعياد وإلى التعييد. وسيكون لعيد ماري الأهمية الكبرى عندي. ستقولين لي "كل يوم يوم مولدي يا جبران" وسأجيبك قائلا: "نعم، وأنا أعيد لك كل يوم، ولكن لا بد من عيد خصوصي مرة كل سنة".

سررت بإبلاغك إياي إن ذقني ليست لي. سررت جدا جدا، أوأظن ن تسليم ذقني أول تلك الشروط الدولية. لقد كانت هذه الذقن مسرحا للاهتمام غير اللازم وللتعب غير اللازم. والآن وقد صارت ذقني في حوزة سواي على أن أرفع عنها يدي - ومنجلي! فليحتمل من يملكها مسئولياتها. بارك الله فيها لمن يملكها. ولي من ذكائك المدهش ما يوقفني عن الإسهاب في هذا الموضوع الزراعى.

كذا- أما بخصوص الخلاف الذي كان بين إهدن وبشري فقد زال بكليته، ولقد قرأت في بعض الصحف أن "جمعية الشبيبة البشراوية" دعت "جمعية الشبيبة الإهدنية" إلى وليمة في مار سركيس بشرى، وبعد ذلك بأيام دعت الشبيبة الإهدانية البشراوية إلى وليمة في مار سركيس إهدن.

أنا أعتقد أن الخصام قد ابتدأ بالسركسيين القديسن، غفر لهما الله، وظل الخصام على قدم وساق حتى قام من البلدتين فتيان لا يعرفون شيئا عن السراكيس. ولكن الوفاق بين إهدن وبشري لا يعني هذا أبدا، فأنت وأنا سنبقي متكلين على صندوق الذهب حتى يتكل كل منا على رفيقه.

انظري يا محبوبتي العذبة كيف قادنا المزاح إلى قدس أقداس الحياة: عندما بلغت هذه الكلمة "رفيقة" ارتعش قلبي في صدري فقمت ومشيت ذهابا وإيابا في هذه الغرفة كمن يبحث عن رفيقه. ما أغرب ما تفعله بنا كلمة واحدة في بعض الأحايين، وما أشبه تلك الكلمة الواحدة برنين جرس الكنيسة عند الغروب. إنها تحول الذات الخفية فينا من الكلام إلى السكوت، ومن العمل إلى الصلاة.

تقولين لي إنك تخافين الحب. لماذا تخافينه ياصغيرتى؟ أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مد البحر؟ أتخافين طلوع الفجر؟ أتخافين مجيء الربيع؟ لما يا تري تخافين الحب؟

أنا أعلم أن القليل في الحب لا يرضيك، كما أعلم أن القليل في الحب لا يرضينى. أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل. نحن نريد الكثير. نحن نريد كل شيء. نحن نريد الكمال. أقول يا ماري إن في الإرادة الحصول، فإذا كانت إرادتنا ظلا من أظلال الله فسوف نحصل بدون شك على نور من أنوار الله.

لا تخافي الحب يامارى، لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة.

اسمعي يا ماري: أنا اليوم في سجن من الرغائب. ولقد ولدت هذه الرغائب عندما ولدت. وأنا اليوم مقيد بقيود فكرة قديمة، قديمة كفصول السنة، فهل تستطيعين الوقوف معي في سجني حتى نخرج إلى نور النهار، وهل تقفين إلى جانبي حتى تنكسر هذه القيود فنسير حرين طليقين نحو قمة الجبل؟

والآن قربي جبهتك. قربي جبهتك الحلوة– كذا، كذا.

والله يباركك والله يحرسك يا رفيقة قلبي الحبيبة.

جبران

ماري.. هل تعرفين؟

نيويورك 2نوفمبر 1924

يا ماري.. أنت تعرفين سبب سكوتك أما أنا فأجهله. وليس من العدالة أن يكون جهل المرء مصدرا لتشويش أيامه ولياليه.

الأعمال والأقوال بالنيات، ولقد كانت نيتي ولم تزل في راحة الله. أخبريني يا صغيرتي المحبوبة عما حدث لك أثناء العام الغابر. أخبريني واكسبي أجري.

والله يحرسك ويملأ قلبك من أنواره.

جبران

صغيرتي المحبوبة.. مي

نيويورك 9 ديسمبر 1924

ما أعذب صغيرتي المحبوبة تذكرني في صلاتها كل يوم. ما أعذبها وما أكبر قلبه وما أجمل روحها.

ولكن ما أغرب سكوت صغيرتي المحبوبة، ما أغرب سكوتها. ذلك السكوت الطويل كالأبدية العميق كأحلام الآلهة، ذلك السكوت الذي لا يترجم إلى أية لغة بشرية. ألا تذكرين أنه لما جاء دورك في الكتابة لم تكتبى؟ أولا تذكرين أننا تعاهدنا على معانقة الصلح والسلام قبل أن يعانق الليل الأرض؟

وأنت تسألين عن حالي، وعن "خاطري"، وعن الأمور التي تشغلني، أما حالى فهي مثل حالك تماما ياماري. أما خاطري فلم يزل في الضباب حيث اجتمعنا – أنت وأنا – منذ ألف سنة. أما الأمور التي تشغلني في هذه الأيام فهي من الأمور المضطربة المشوشة، تلك الأمور التي لابد لمن كان مثلي من اجتيازها، رغب فيها، أولم يرغب.

الحياة يا مريم أغنية جميلة، فبعضنا يجيء نبرة في تلك الأغنية وبعضنا يجيء قرارا. ويبدو لي يامريم أنني لست بالقرار. يبدو لي أنني لم أزل في الضباب، في ذلك الضباب الذي جمعنا منذ ألف سنة.

على أنني رغم كل شيء أشتغل مصورا أكثر الأيام وفي بعض الأيام أهرب إلى مكان بعيد في البرية وفي جيبي دفتر صغير، وسوف أبعث إليك بشيء من هذا الدفتر يما ما.

هذا كل ما أعرفه الآن عن "أنا" فلنعد إن شئت إلى موضوعنا المهم، لنعد إلى حبيبتنا الحلوة: كيف حالك وكيف حال عينيك؟ وهل أنت سعيدة في القاهرة مثلما أنا سعيد في نيويورك؟ وهل تمشين ذهابا وإيابا في غرفتك بعد منتصف الليل؟ وهل تقفين بجانب نافذتك بين الآونة والأخرى وتنظرين إلى النجوم؟ وهل تلتجئين بعد ذلك إلى فراشك، وهل تجففين ابتسامات ذائبة في عينيك بطرف لحافك؟.. هل أنت سعيدة في القاهرة مثلما أنا سعيد في نيويورك؟

أفكر فيك يا ماري كل يوم وكل ليلة. أفكر فيك دائما وفي كل فكر شيء من اللذة، وشيء من الألم. الغريب أنني ما فكرت فيك يامريم إلى وقلت لك في سري تعالي واسكبي جميع همومك هنا، هنا على صدري، وفي بعض الأحيان أناديك بأسماء لا يعرف معناها غير الآباء المحبين والأمهات الحنونات.

وها أنا أضع قبلة في راحة يمينك، وقبل ثانية في راحة شمالك. طالبا من الله أن يحرسك ويباركك ويملأ قلبك بأنواره، وأن يبقيك أحب الناس إلي.

جبران

ماري.. أنت تعلمين!

نيويورك 12 يناير 1925

يا ماري – كنت في السادس من هذا الشهر أفكر فيك كل دقيقة بل كل لحظة، وكنت أترجم كل ما يقول لي القوم إلى لغة ماري وجبران– وتلك لغة لا يفهمها من سكان هذا العالم سوى ماري وجبران.. وأنت تعلمين طبعا أن كل يوم من أيام السنة هو يوم مولد كل واحد منا.

إن الأمريكيين أرغب شعوب الأرض في التعييد وفي إرسال الهديا والحصول عليها. ولسر خفي عني يعطف الأمريكيون على خلال هذه المواسم، وفي السادس من هذا الشهر أوقعتني شدة عطفهم مخجولا أماما نفسي مغمورا بعرفان الجميل. ولكن يعلم الله أن الكلمة الحلوة التي جاءتني منك كانت أحب لدي وأثمن عند من كل مايستطيع الناس جميعهم أن يفعلوا أمامى. الله يعلم ذلك، وقلبك يعلم.

وبعد التعييد جلسنا، أنت وأنا، بعيدين إلا عما بنا وتحدثنا طويلا، وقلنا مالا يقوله سوى الحنين، وقلنا ما لا يقوله سوى الأمل. ثم حدقنا بنجم بعيد وسكتنا، ثم

عدنا إلى الكلام فتحدثنا حتى الفجر. وكانت يدك المحبوبة فوق هذا المكان الدقاق حتى الفجر.

والله يرعاك ويحرسك يامريم. والله يسكب أنواره عليك. والله يحفظك لمحبك.

جبران

يا ماري.. كنت صبيا

نيويورك 6 فبراير 1925

وتلقت مي مغلفا بتاريخ 6 فبراير 1925 يتصمن بطاقة بيريدية تمثل القديسة "آن" بريشة "ليوناردو دافنشى"، خط جبران على ظهرها رسالة هذا نصها:

يا ماري ما رأيت أثرا من آثار "ليوناردو دافنش" إلا وشعرت بقوة سحره تتمشي في باطنى، بل وشعرت بجزء من روحه يتسرب إلى روحى. كنت صبيا عندمام رأيت للمرة الأولى بعض رسوم هذا الرجل العجيب. تلك ساعة سأذكره ما حييت فقد كانت من تلك الأيام بمقام الإبرة المغناطيسية من سفينة تائهة في ضباب البحر.

وجدت هذه البطاقة اليوم بين أوراقي فرأيت أن أبعث بها إليك لتخبرك عن بعض تلك العوامل التي كانت تسير شبابي في أودية الكآبة والوحدة والشوق إلى ما لا أعرفه.

والله يحرسك

جبران

يا ماري.. تلك المحفظة الصغيرة !

نيويورك 23 مارس 1925

قد سببت لك تلك المحفظة الصغيرة القلق والانزعاج، فاغفري لى. ولقد توهمت أنني أرسلتها على أحسن السبل وأسهلها فجاءت النتيجة بالعكس، فسامحيني يا صديقتي الحلوة واكسبي أجري.

إذن قد قصصت شعرك؟ قد قصصت تلك الذوائب الحالكة ذات التموجات الجميلة؟ ماذا يا ترى أقول لك؟ ماذا أقول وقد سبق المقص الملام؟ لا بأس، لا بأس. علّي أن أصدق ما قاله لك ذلك المزين الرومانى.. رحم الله آباء جميع الرومانيين.

ولم تكتف صديقتي المحبوبة بأنها أخبرتني عن تلك الخسارة الفادحة بل شاءت أن تزيد "علّي الطين بلة" فأخذت تحدث "فنانا شاعرا شغف بشعرالحضارة والشقرة، فهو لا يروقه إلى الشعر الذهبي، ولا يترنم إلا بجمال الشعر الذهبي، ولا يحتمل في الوجود إلى الرؤوس ذات الشعر الذهبى".

ربي وإلهي، اغفر لماري كل كلمة من كلماته وسامحها واغمر هفواتها بأنوارك القدسية. أرها بالحلم أو باليقظة كاثوليكية عبدك جبران في كل ما يتعلق بالجمال. ابعث رباه ملكا من ملائكتك ليقول لها إن عبدك هذا يسكن صومعة ذات نوافذ عديدة، وإنه يرى مظاهر حسنك وجمالك في كل مكان وفي كل شيء، وإنه يترنم بجمال الشعر الحالك مثلما يترنم بالشعر الذهبي. وإنه يتهيب أمام العيون السوداء مثلما يتهيب أمام العيون الزرقاء، وأطلب إليك ربي وإلهي أن توعز إلى ماري ألا تهين وتحتقر الشعراء والفنانين بشخص عبدك جبران.. آمين.

وبعد هذه الصلاة أتحسبين أنني أستطيع الكلام عن الذقون المطبوعة؟ كلا! غير أني سوف أبحث في هذه المدينة عن مزين روماني وأسأله ما إذا كان بإمكانك تحويل الذقون المطبوعة إلى ذقون سهلة مستديرة، على البيكار! هذا ولما كنت ضليعا بفن الجراحة فأنا لا أخشى عملية جراحية!

لنعد الآن إلى حال عينيك.

كيف حال عينيك يا ماري؟ أنت تعلمين، أنت تعلمين بقلبك أن حال عينيك يهمني إلى درجة قصوى. وكيف تسألين هذا السؤال وأنت تشاهدين بعينيك ما وراء الحجاب؟!.. أنت تعلمين أن القلب البشري تلك التي نستسلم إليها ونجد في الاستسلام لذة وراحة وطمأنينة مع أننا، مهما حاولنا لا نستطيع تفسيرها أو تحليلها. يكفي أنها عاطفة عميقة قوية قدسية. فلم السؤال ولم الشك؟ ومن منا يا ماري يستطيع أن يترجم لغة العالم الخفي إلى لغة العالم الظاهر؟ من منا يستطيع أن يقول: "في روحي

شعلة بيضاء أما أسبابها فكذا وكذا، وأما معناه فكذا وكذا،وأما نتائجه فستكون كذا وكذا"؟ كفي المرء أن يقول لنفسه "في روحي شعلة بيضاء".

قد سألت عينيك يا ماري لأنني كثير الاهتمام بعينيك، لأنني أحب نورهما، وأحب النظرات البعيد فيهما، وأحب خيالات الأحلام المتموجة حولهم، ولكن اهتمامي بعينيك لا يدل على أنني قليل الاهتمام بجبهتك وأصابعك.

الله يباركك يا ماري المحبوبة، ويبارك عينيك وجبهتك وأصابعك والله يحفظك دائما

جبران

يا ماري

نيويورك 30 مارس 1925

نعم. قد كنت صامتا أثناء أربعة أسابيع، أما السبب فهو الحمى الإسبانية لا أقل ولا أكثر.

أنا أستصعب، أستصعب جدا الشكوى من علة تلم بي. فإذا مرضت رغبت في أمر واحد وهو الاختفاء عن عيون الناس، حتى عن عيون الذين أحبهم ويحبونني. وفي شرعي أن أحسن دواء للداء هو الانفراد التام.

أما صحتي الآن فهي حسنة، بل أكثر من حسنة، ولا أكتمك أنها قد صارت بهموطية! (هكذا كان جبار بشراوي يصف صحته عندما يسأله الناس عنها).

السائح (جريدة مهجرية) الممتاز قد صدر متأخرا كالعادة. وقد خاطبت صاحب السائح هذا الصباح بواسطة التليفون فقال لي إنه قد بعث إليك ، ولم يزل يبعث إليك، أعداد جريدته ممتازة كانت أم غير ممتازة.

أما قولك يامريم الحلوة أن صاحب "السائح" ناقم عليك لأنك لم تبعثي إليه بمقال لعدده الممتاز فمن المبالغة الهائلة. أتظنين أن رجلا في نيويورك ينقم عليك طالما

وأنا في نيويورك؟ قد قلت ألف مرة ومرة: "نحن لسنا بمعامل أدبية،. نحن لسنا آلات تلقمونها الحبر والورق من جهة لتستخرجوا المقالات والقصائد من جهة ثانية. نحن نكتب عندما نريد أن نكتب، لا عندما تريدون أنتم، فاعملوا المعروف معنا واتركوننا وشأننا، فنحن في عالم وأنتم في عالم آخر، فلا منكم إلينا ولا منا إليكم. ماقولك في هذه اللهجة السربستية؟ ولكن فعلا، بدون مزاح، ألا ترين أن أكثر أصحابي المجلات والجرائد يتوهمون أن فكرة الكاتب مثل الفونوغراف ذلك لأنه ولدوا بفكرة فونوغرافية؟

نحن هنا في أوائل الربيع، ففي الهواء سحر ويقظة. وفي الروح فجر وشباب. أما الذهاب إلى البرية فشبيه بزيارة كهن وكاهنات عشتروت وتموز مغارة أفقا.

وبعد أيام معدودة سقوم يسوع من بي الأموات ليعطي الحياة لم في القبور، فتزهر أشجار اللوز والتفاح، وتعود الأنغام إلى السواقي والأنهار.

ستكونين معك كل يوم من أيام نيسان. وستكونين معي بعد أن ينقضي نيسان، كل يوم وكل ليلة.

والله يحرسك ويحفظك يا مريم المحبوبة.

جبران

ماري.. ما قولك؟!

نيويورك مارس 1925

ما قولك في رجل يستيقظ من غفلته صباحا فيجد إلى جانب فراشه "رسالة" من صديقة يحبها فيقول بصوت عال "صباح الخير، أهلا وسهلا" ثم يفتح الرسالة بلجاجة العطشان، فماذا يجد؟ لا أكثر ولا أقل من قصيدة جغرافية لشوقي بك!!

لا بأس.. سوف أبحث فأحصل على قصيدة عامرة طويلة ممتعة لناسج بردها حليم أفندي دموس فأشرحها شرحا كافيا وافيا وأبعث بها إليك! "وأخذ الثار مش معيار".

لو جاءت قصيدة شوقي في أول البريد لاستظرفت النكتة وقلت في سري: "ما أحسنها صبية، وما أعرفها بأحوال البريد الدولي"، ولكن القصيدة جاءت في أول مايو، شهر الورود، فماذا يا ترى أفعل سوى أن أعض شفتي حانقا متوعدا مفعما فضاء منزلي بالضجيج.

أجل، سوف أدرس فلسفة "سن بسن وعين بعين" فأبعث إليك بكل ما تتكرم علينا قرائح أمراء الشعر العربى.

أسألك الآن، كيف أستطيع أن أصرف ما يقي من هذا النهار كما يجب أن أصرفه قبل أن أغفر لك وأسامحك؟ إن قصيدة أمير شعرائكم قد ألقت حفنة من التراب في فمي، وعلّي أن أقرأ عشرين قصيدة لكيتس وشالي وبليك، وقصيدة واحدة لمجنون ليلى!! وبالرغم من كل شيء، افتحي كفك.. كذا، وكذا، كما يفعلون.

والله يحفظك ويحرسك محبوبتي..

جبران

محتويات الفهرس

مقدمة 5
مولدها ونشأتها 9
حضرة الأديبة الفاضلة 19
الآنسة مي زيادة المحترمة..... 23
عزيزتي الآنسة مي (1)..... 27
عزيزتي الآنسة مي (2)..... 31
عزيزتي الآنسة مي (3)..... 37
عزيزتي الآنسة مي (4)..... 41
دعوة وليمة فنية 47
محبوبتي الصغيرة..... 49
عزيزتي مي..... 51
يا صديقتي مي..... 61
يا مى..... 69
يا مي يا صديقتى..... 75
يا مي ياماري يا صديقتي..... 81
صديقتي الفاضلة..... 83
عزيزتي مي 87

ما أعذب رسالتك في قلبي .. ما أحلاها في قلبي يا مي 93
صديقتي مي..... 97
عزيزتي..! 101
عزيزتي الآنسة مي..... 103
مى 105
مارى..هل تعرفين؟ 109
صغيرتي المحبوبة 111
ماري أنت تعلمين 113
يا ماري ..كنت صبيا 115
يا ماري تلك المحفظة الصغيرة..... 117
يا ماري 121
ماري .. ما قولك؟ 123